رئيف خوري

حقوق الانسان



منشورات مجلة "الطليعة"
١٩٣٧

مطبعة ابن زيدون * دمشق

ف. خوري

حقوق الانسان

من أين والى أين المصير ؟

مع مقدمة بقلم الأستاذ

رجا حوراني



منشورات مجلة "الطليعة"
١٩٣٧

مطبعة ابن زيدون * دمشق

متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحراراً ؟ (١)

(عمر بن الخطاب)

لقد ولد الرأي العام يوم أوجد غوتنبرغ – الملقب بصانع العالم الجديد – عن طريق الطباعة ، تلك الصلة التي لا نهاية لها بين الافكار والاذهان البشرية . وقوة الرأي هذه ، التي لا نكاد ندركها ، ليست تحتاج في بسط سلطانها الى سمة الانتقام أو سيف العدالة أو آلة الاعدام . لان في يدها ميزان الافكار والمؤسسات والذهن البشري . ففي احدى كفتي ميزانها ستعيش طويلا خرافات العقل الانساني ، والاهواء التي

(١) كان من حديث هذه الكلمة : ان ابناً لعمرو بن العاص – والي مصر – سابق بفرسه رجلاً مصرياً من عامة الشعب ، فسبقه الرجل . فنزل اليه ابن عمرو بن العاص ، وجعل يضربه بالسوط ، ويقول : « انا ابن الاكرمين ! » فهرب الرجل حتى أتى الخليفة عمر بن الخطاب ورفع اليه ظلامته . فبعث عمر الى عمرو يأمره أن يحضر الحج المقبل هو وأولاده جميعاً . فلما جاء الموسم لبى عمرو أمر امير المؤمنين هو وأولاده . فالتقى بهم عمر ومعه الرجل المصري . فسلم عمر سوطاً الى المصري وقال له على مشهد من الخلق : تقدم فاضرب الذي ضربك . فتقدم الرجل وجعل يضرب من ضربه من أبناء عمرو ، وعمرو مدهوش لا يفهم . عندها قال له الخليفة ابن الخطاب كلمته الخالدة في التاريخ : متى استعبدتم الناس الخ .

تدعي لها الفوائد ، وحقوق الملوك المقدسة ، والتمايز في الحقوق بين الطبقات ، وعداء الدول ، وروح الفتح الحربي ، واتحاد الدين والحكومة اتحاداً فاسداً ، والرقابة على الافكار ، وإسكات زعماء الشعب ، والعمل في الحط من كرامتهم ، وشيوع الجهل بين سواد الامة ... أما في الكفة الاخرى فاننا سنضع أخف ما خلقه الله وأقله مادة — النور !

(لامارتين)

ما زلنا لم نتعلم بعد ان نغتبط بالانسان كأجمل وأعجب شيء على كرتنا ، فاننا لن نستطيع تحرير أنفسنا مما في حياتنا من فظاعة ونفاق . بهذه العقيدة جئت العالم ، وبهذه العقيدة سأتركه . وعند تركي إياه سيبقى معي ايماني ان العالم مدرك يوما ان الانسان هو أقدس شيء !

(مكسيم غوركي)



مقدمة الكتاب

بقلم الاستاذ رجا حوراني

« لا يحق لأحد أن يظن خطأ اني احلم بالسعادة بدون جهاد ، وبالخيرات بدون عمل . العمل هو الشرط الاساسي ليس لايجاد الخيرات فحسب ، بل للحياة نفسها

اني أطلب شيئاً واحداً : وهو ان لا يرهق اناس ليعيش آخرون كالطفيليين ؛ وألا يبقى سيد ومسود . هل هذا تطرف ؟

هل يعترض ضعاف الايمان بقولهم « مستحيل » ! ثم يرددون ما قاله غيرهم انه لحلم جميل وسيبقى حلما جميلاً روحانياً في تاريخ الطوبيات ! وان الارض لن تثمر به ، وان الاقلية تتخم وتتنعم والاكثرية تكد وتعمل !

الاقلية تبذر والاكثرية تجوع !

الاقلية تسود والاكثرية تساد !

المنتجون هم الفقراء ، والكسالى هم أهل الثراء !

وان هذه الحال ستستمر الى الابد ؟

لا ! لا ! فهل يحلم العالم عبثاً ؟ هل تشوق وتاق محبو الانسانية الى سعادة غير ممكنة التحقيق ؟

هل الطموح للحرية والمساواة والسعادة ، غرس في صميم قلوبنا عبثاً ؟ »

(ادوارد بللامي — من كتابه « المساواة »)

يَسرُّ « الطليعة » واسرتها عموماً أن نقدم هذا الكتاب النفيس هدية لمشتركيها لعام ١٩٣٧ ، ويسرني بنوع خاص ان أضع المقدمة لهذا السفر الغالي الذي أتحفنا به مؤلفه الاستاذ رئيف خوري .

لقد أحسن المؤلف اختيار الموضوع ، واختيار الزمن ، فالموضوع « حقوق الانسان » ليس مبتكراً ، وربما كان في قدمه كقدم شعور الانسان بحقوقه لأول مرة في التاريخ . على أن « حقوق الانسان » لم تتخذ شكلاً واضحاً إلا بعد قيام الثورة الفرنسية الكبرى واقرار هذه الحقوق في دستور يقع في سبع عشرة مادة كان لها أثر فعال في تطور الحركات الاجتماعية الحديثة في بلدان الغرب .

ولكي ندرك مزية المؤلف في حسن اختيار الزمن ، يجب ألاّ يغيب عنا ـ اليوم أكثر من أي وقت مضى ـ أنه من حق الكتاب والأدباء وقادة الشعب ومفكريه ؛ بل من

أخص واجباتهم : أن يشيروا بأحرف من نار إلى حقوق الإنسان التي أصبحت مداسة وان يفتحوا الأبصار بكل الطرق الممكنة على القوى الغاشمة في العالم التي تسلط ما عندها من وسائل البطش ، من حديد ونار ، وتفتك بالانسان فتكاً كأنه بعوضة أو مخلوق لا قيمة له .

في أوائل القرن العشرين تناول هذا الموضوع الكاتب الاجتماعي المعروف فرح انطون في مجلته « الجامعة » وهاك بعض ما كتبه تحت العنوان التالي :

حقوق الانسان لا يجوز أن يدوسها انسان ـ ويجب أن يبث المعلمون والاساتذة روحها في نفوس تلامذتهم :

« ... اذا نظرت الى الطبيعة وجدت النظام مستتباً في كل عنصر من عناصرها ورأيت كل شيء في موضعه منها . فالماء يجري سلسبيلا والنسيم يهب بليلا والارض تخرج أثماراً وبقولاً والحيوان يرعى فيها ناعم البال طرب الروح مهللا تهليلا .

« أما القلق والاضطراب والخلل والعذاب والظلم والوهم والدناءة والفوضى فلست تجدها إلا في الجمعية البشرية .

« هل نظرت في الطبيعة مخلوقاً يقعد وثلاثون أو أربعون مليونا من جنسه تسعى لخدمته .

«هل نظرت فيها مخلوقاً دنيئاً جباناً طماعاً يولونه رئاسة لخدمة ابنائها ، فيتخذ رئاسته ذريعة لاشباع بطنه وإرضاء طمعه واحتلاب رعيته دون أن يقوم بحق خدمته ؟

« هل شاهدت فيها مخلوقاً يُطعم كلابه اللحم المسمن مع ان رفاقه يموتون جوعاً ، او مخلوقاً بليداً جاهلاً في صدر الهيئة مع ان العقلاء والفضلاء في عتبتها ؟

«هل شاهدت فيها ان الذين يسرقون وينمون ويتسافهون ويخدعون ، يغتنون وينجحون ويتنعمون خلافاً للذين يصدقون ؟

« كلا ! ان كل هذه الامور الشائنة لا تراها في الطبيعة ، ولكنك تراها في الجمعية البشرية ... فأعظم عمل يقوم به الشارعون وأنفع ما يخدمون به الهيئة البشرية الحاضرة إعادتها الى النظام (الذي يكفل حقوق الانسان) وهذا النظام معدوم الآن في العالم من سوء حظ العالم وإنما أصلح الممالك وأفضلها هي التي تكون أشد قرباً منه من باقي اخواتها» - («الجامعة» ـ السنة الثالثة ص ٢٥١).

لقد مر ثلث قرن على ما كتبه المرحوم فرح انطون وهو لا يزال يصدق اليوم ولكن بصورة أفظع . فالقلق والفوضى والاضطراب والثورات وحروب الاكتساح الجشعة ، والازمات

الخانقة ، وتناقض المدنية ، كلها امور ظاهرة تحمل الانسان المفكر على التساؤل عن مصير البشرية . وعندما أقول البشرية أقصدك أنت أيها القارئ وأقصد نفسي والوفا بل ملايين غيرنا من أبناء هذا الوطن .

الى أين مصيرنا ؟ وما هو مستقبلنا ؟ وماذا يخبئ لنا هذا العام والعام الذي يليه ! هل الافق منقشع أمامنا أم هنالك غيوم متلبدة تحجب عنا حتى معرفة المستقبل القريب ؟

عجباً ! أيدور في خلد أحد أن القوى الغاشمة تعمل اليوم على هدم ما بنته البشرية وما أنتجته أدمغة العباقرة خلال العصور ، وجر المدنية الى الوراء ؟؟

ولكن الاستاذ فرح انطون رغم بشاعة الصورة التي رسمها فقد كان متفائلا حيث يقول : «على ان العالم سائر اليه (الى النظام الذي يكفل حقوق الانسان) من حسن الحظ سيراً حثيثاً وهذا معنى قولهم ان العالم يتدرج في مراقي الكمال شيئاً فشيئاً» .

وهنا تظهر ميزة الكتاب الاولى . فالاستاذ المؤلف بعد استعراض دقيق مستعجل لحقوق الانسان خلال العصور وتبيان نضاله نضالا قوياً ، وانتزاعه حقوقه انتزاعاً من أيدي السلطة

التي كانت تحاول بشتى الوسائل أن تضغط عليه وتدوس حقوقه ؛ بعد هذا العرض، يطلع علينا الاستاذ المؤلف بالحقيقة الراهنة وهي ان ما كانت تحلم به الانسانية قد تم، وان سدس الكرة الارضية اليوم ينعم بنظام اشتراكي يكفل حقوق الانسان بصورة كاملة لم يعرفها العالم من قبل .

قد يتساءل البعض : ولكن أنى لنا ان نعلم العلم اليقين عن بلاد الاشتراكية، بلاد الاتحاد السوفياتي، ونحن نقرأ اخباراً متناقضة عنها، مما يحملنا على الشك فيما يجري في تلك البلاد : هذا حق ومنطق ! ونحن نقول أيضاً إنا نجهل أشياء كثيرة عن بلاد الاتحاد السوفياتي ولكن الاستاذ المؤلف في معالجته موضوعه أبان لنا بما لم يترك معه مجالا للشك ان الانسان خلال العصور عاش مقيداً بسلاسل ثقيلة، كان يخف ثقلها كلما ازداد تحسسه بحقوقه كانسان، إلى أن وصل بعد نضاله الطويل العنيف الى ما يكفل حقوقه، وحقق النظام الاشتراكي الذي يحرم الاحتكار الرأسمالي الضخم وبذلك قضي على أعظم الشرور والفوضى الناجمة عن تضارب مصالح المؤسسات المالية الاحتكارية الضخمة، والتي هي سبب الازمات والاستعمار والحروب كما سيرى القارئ في هذا الكتاب .

أما ما نسمعه من دعايات ايجابية .أو سلبية فيما يتعلق بالاتحاد السوفياتي فهذا لا يدخل في موضوعنا إذ نحن امام مبادئ وحقائق تاريخية وعلمية تزول الاشخاص ولا تزول .

فميزة الكتاب الثانية إذن هي انه كتاب علمي أستند مؤلفه الى حقائق تاريخية ومصادر أولية في جميع مقتبساته وفي كثير منها استغنى عن ذكر المصدر بالكتاب والصفحة وا كتفى بذكر أهم المصادر الاولية الافرنجية التي يمكن للباحث المستقرئ الرجوع اليها اذا دعت الحاجة .

وميزته الثالثة انه تحفة ادبية لقراء العربية ، لم يكتبه الاستاذ خوري بقصد التسلية بل لتوجيه الافكار بصورة عملية الى مشاكل هذا العصر الذي ازداد فيه تبلبل الافكار واصبح الناس في حيرة وقلق وازدادت الاقاويل والمتناقضات في مصير الديموقراطية وصلاحيتها للحكم ، وكثرت الدعايات الاجنبية الفاشستية في البلاد العربية .

على ان المؤلف رغم نظرته البعيدة الشاملة الى العالم وما يتمخض به من حركات بركانية ، وفهم دقيق لتلك الحركات ونتائجها ، فهو يضع بالدرجة الاولى نصب عينيه البلاد العربية ومصيرها ويشير الى افضل الطرق الممكن اتباعها كي تعيش هذه الاقطار العربية

عزيزة مستقلة موفورة الكرامة تدير شؤونها بنفسها .

حقاً إنه لمن واجب المثقفين في بلادنا ، وأخصهم الأدباء الذين يحملون مسئولية كبرى تجاه وطنهم والتاريخ ، أن يضعوا نصب أعينهم مستقبل بلادهم ومصلحتها ، لأنها مرتبطة بمستقبلهم ومصلحتهم .

على الأدباء خصوصاً أن يسألوا ذواتهم هذا السؤال : أين نحن من « حقوق الإنسان » ؟ وفي أي مرحلة من مراحل « نضال الإنسان للحصول على حقوقه » يمكننا أن نضع شعبنا . أي حقّ يملكه الواحد منا ؟ لا أغالي إذا قلت إنه لا يزال بعيداً كل البعد عن ملك الحقوق الأولية البسيطة التي يتمتع بها غيرنا من الأمم الأخرى : فهو لا يملك حقّ الكلام بصراحة ، ولا حق الكتابة بصراحة ، ولا حق الخطابة ، ولا حق الدفاع عن نفسه إذا ما ألقي القبض عليه - وفي بعض أجزاء بلادنا العزيزة يعامل العربي معاملة تخجل منها القرون الوسطى .

أين نحن من حقوق الإنسان ؟ وأي حرية نتمتع بها ! بل أين هو حقنا الوطني كأفراد وكجماعات في بلاد رأينا النور فيها لأول مرة ، وترعرعنا ونشأنا في أحضانها ،

والتعقد والتناقض يستحيل معها على الناس أن يعيشوا بدون دولة وحكومة ، وذلك يعني : بدون قوة مسيطرة منهم تسيطر عليهم في حياتهم وعلائقهم ومصالحهم .

لماذا ؟ ما السر في ذلك ؟

السر في ذلك هو تناقض مصالح الناس ، في هذه الدرجة من تطور مجتمعهم ، تناقضاً يهدد دائماً بالانفجار في اصطدامات دموية عنيفة ، مالم تكن هناك هذه القوة المسيطرة الكابحة . وتناقض مصالح الناس صادر عن انشقاقهم الى طبقات ، وانشقاقهم الى طبقات هو بحسب تمركز الملكية الخاصة في أيدي فريق منهم دون فريق — الملكية الخاصة في وسائل الانتاج وأدواته فوق كل شيء ؛ وهي تلك الملكية التي تسلط صاحبها تسليطاً على حياة المجتمع الاقتصادية وما يترتب عليها من سائر مناحي الحياة .

مما تقدم ، نستطيع أن نستخلص سبع مبادىء أولية في الدولة والحكومة نجملها بما يلي :

(١) الدولة والحكومة لا تخلقان المجتمع ، بل المجتمع ، في درجة من تطوره ، يشعر بضرورة الاتجاه الى الدولة والحكومة .

(٢) لقد مر المجتمع في طور لم يكن فيه دولة وحكومة ، وذلك عندما لم تكن حياة المجتمع وعلائق الناس ومصالحهم قد تركبت وتعقدت وتناقضت بحيث أصبح لا بد من قوة مسيطرة كابحة .

(٣) سيجيء طور من أطوار المجتمع تتلاشى فيه الضرورة الى الدولة والحكومة ، فتنحل فيه الدولة والحكومة بالتدريج ، وذلك عندما يقضى على الملكية الخاصة في وسائل الانتاج وأدواته فوق

كل شيء ، يُقضى على نظام الطبقات ، فيقضى على تناقض مصالح الناس ، فتنقطع الحاجة الى الدولة والحكومة الكابحة .

(٤) كل دولة وحكومة تستندان ، في الغربلة النهائية ، الى القوة (وهذا ليس يعني أن الدولة والحكومة تلجآن دائماً الى العسف في كل عمل) .

(٥) الدولة والحكومة ، في أي مجتمع ، هي دولة وحكومة الطبقة المسيطرة في ذلك المجتمع — أي الطبقة المستولية على وسائل الانتاج وأدواته ، المتمكنة بفضل استيلائها على هذه الوسائل والأدوات من التحكم باقتصاديات المجتمع .

(٦) هذه الطبقة المسيطرة قد تكون الأقلية الصغرى ، وقد تكون الأكثرية الكبرى .

(٧) كلما استيقظ المجتمع ، وزاد تحسسه ، ونضج إدراكه تاق الى نزع الدولة والحكومة من يد الأقلية الصغرى ، ووضع مقاليدها في يد الأكثرية الكبرى — أي حوّل وجهه شطر ديموقراطية أوسع فأوسع [1] .

***

(١) يلاحظ القارىء في هذه النقاط السبع مخالفة للتفكير الفاشستي في الدولة والحكومة فان الواضح من هذه النقاط : ان الدولة والحكومة انما هما واسطتان الى غاية ، لا غاية بنفسهما . أما التفكير الفاشستي فيزعم ان الدولة والحكومة غاية بنفسهما ، ويسبغ عليهما صفة ذهبية سماوية ، ويقرر أنهما ثابتتان الى الابد ، وأن تدبير شؤونهما مما يخص دائماً اقلية ممتازة ، الى غير ذلك من الادعاءات التي تنسفها حقائق التاريخ . ومن اراد زيادة الاطلاع على مسألة الدولة والحكومة فليراجع كتاب لينين : « الثورة والدولة » .

من هذه الملاحظات السريعة في الدولة والحكومة تنبثق أشعة تنير لنا شعاب موضوعنا : حقوق الانسان ، انارة شاملة .

فنرى أن وجود الدولة والحكومة إنما هو في حد ذاته انتقاص لشيء قليل أو كثير من حقوق الانسان .

ونرى ان الدولة والحكومة كلما اشتد تمركزهما في يد الأقلية الصغرى من المجتمع — أي كلما كان شكل الحكم منحرفاً الى الاوتوقراطية والاستبداد — ضاق مدى حقوق الانسان . بعكس ما لو كانت الدولة والحكومة ديموقراطيتين متمركزتين في يد الاكثرية الكبرى ، فان الحقوق التي يتمتع بها الانسان في المجتمع ، عندئذ ، يتسع مداها جداً .

ونرى أخيراً أن حقوق الانسان لن تبلغ أعظم مداها من السعة إلا بعد إنهاء الملكية الخاصة في وسائل الانتاج وأدواته ، وجعل هذه الوسائل والأدوات ملكاً عاماً للشعب — أي بعد قيام الاشتراكية وتطورها حتى تنحل الحكومة والدولة اللتان تحميان ملكية طبقة احتكارية خاصة من المجتمع ، لوسائل الانتاج وأدواته ...



الانسان بلا حقوق !!

طغيان اسياد الكهنوت والاقطاع والملوك

اوائل يقظة الانسان

١ – المجتمع العبودي القديم

« هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ؟ »

ما أشد ما تعيد الى الذهن هذه الآية المتسائلة التي يفتتح بها القرآن « سورة الدهر » ذكرى عصور سحيقة ملؤها الفظائع من حرمان الانسان وعذابه واحتقاره ، عصور لم تزل منها بقايا تمتد إلى افق يومنا هذا . ولعلها بقايا تنذر باسترجاع قوتها وتجديد سيطرة البربرية على العالم بأحدث أشكالها — الشكل الفاشستي كما سنرى — ان لم يعرف الانسان كيف يحتفظ بانتصاراته التي أحرزها خلال العصور بالدم ، وكيف يعززها بانتصارات جديدة .

حقاً تلك عصور لم يكن فيها الانسان شيئاً مذكوراً ! تقلب من التاريخ الصفحات التي تحمل لك حديث تلك العصور ، فاذا أنت أمام ملوك تحت تيجانهم وفوق عروشهم وفي حللهم الارجوانية ، أسماؤهم فراعنة ، أكاسرة ، قياصرة الى غير ذلك ، وبينهم مئة نيرون ونيرون ، يحيط بهم رؤساء الدين والاشراف : أرباب الاقطاع وامراء الجيوش ؛ جميعهم أعضاء شركة استثمارية كبرى يتناحرون فيما بينهم ، يبيتون

المكائد لبعضهم ؛ ولكن كلهم يتحالفون على « الانسان » لا يريدونه أن يخلع من رقبته نير شر كتهم الاستثمارية ، الانسان الكادح هو والثور في حقولهم يستنبت لهم من الارض طيباتها ، الصانع في زوايا حانوته الصغير ، التاجر في السوق ، الجندي في جيوشهم يحمل سيف الفتح تحقيقاً لأطماعهم ؛ الانسان الذي يؤلف جماهير الشعب العريضة العميقة . على مدار السنة يجيئه الجابي «بالكرباج» يقبض الخراج ؛ يجيئه الشريف ينتزع منه موسم عضلاته وقوت عياله ، أو يسلب بضاعته أو يسوقه الى حرب الغزو ؛ ويجيئه أخيراً أسياد الكهنوت يباركون تعاسته وخضوعه بألفاظ الرسول بولس الى الرومانيين (أو بما يشبهها) : «ليس سلطان إلا من الله . والسلاطين الكائنة هي مرتبة من الله !»

ولقد لاحظ مؤرخ حاذق في جميع الرسوم التي بقيت لنا من أزمنة الفراعين انه ليس هناك رسم واحد لفلاح يتنعم نفسه ، أو يشتغل لحسابه تحت كرمته الخاصة وتينته ؛ وليس هناك رسم يدل على أن فكراً مستقلا أو نظراً أو عملا من الاعمال كانت جائزة للناس الفقراء ، بل هم جميعاً تحت وطأة التدريب الرسمي لخدمة الامير . ولاحظ مؤرخ آخر انه وفقاً لتقليد راسخ في الرسوم المصرية يتمثل لنا صاحب القبر في شكل ضخم جبار وفي قبضته العصا وقامته على علو الحائط الذي يحمل الرسم ، بينما سائر الحائط مقسم الى شبه غرف يتمثل لنا فيها عبيده وهم يكدحون في أعمالهم المختلفة ، والعريف أو مراقب العمل حاضر دائماً والجلاد مستعد وليس من أحد معفواً من العمل على الاطلاق حتى المقعدون ، وكثيراً ما نقرأ فوق رؤوسهم العبارة التالية : «عبيد في بيتنا مولودون وهم في دفتر البيت الى الابد مسجلون !»

كان طغيان الاشراف ورؤساء الدين والملوك مطلقاً على الشعب. فلم يكن من الممكن أن يكون للانسان حقوق مؤمنة يطمئن على سلامتها. يصح هذا القول حتى على الاغريق والرومان أهل الديموقراطية القديمة، فان «ديموقراطيتهم» التي تنعموا بها لم تكن قائمة إلا على أكتاف مئات الالوف، بل الملايين، من العبيد المجردين من حقوقهم الانسانية. وأفلاطون حتى في جمهوريته المثلى التي جعل حكامها فلاسفة مستنيرين لم يحرر العبيد قط وأخذ وجودهم مأخذ الامر الطبيعي. وشيشرون الذي نقرأ له خطبة نارية في الاحتجاج لأن أحد الرومانيين جلد، ونلمس غضبه الثائر لهذا الاعتداء على الكرامة الانسانية، نراه في موضع آخر يبحث بكل جد وبرودة: هل يطعم العبيد عندما يكون حاصل القمح قليلا أم يتركون للموت جوعا؟ هذا والعبيد هم الذين كانوا ينتجون القمح!

ولئن صح هذا القول على الديموقراطية القديمة فإنه ليصح طبعاً على الامبراطوريات الشرقية القديمة، والامبراطورية الرومانية، والامبراطورية البابوية، والامارات الاقطاعية المتعددة في القرون الوسطى، والملكيات الاوتوقراطية التي نهضت على أنقاض الامبراطورية البابوية وأشلاء الامارات الاقطاعية؛ قبل أن أخذت الثورات الديموقراطية - بما فيها الثورة الفرنسية الكبرى - تهب فتعصف ببعض هذه الملكيات، وتعدل بعضها تعديلاً أساسياً.

التاريخ يسير

غير أن التاريخ كان يعمل عمله، كان يتطور ويسير عجلاته برغم بطء وتقهقر وقتي هنا وهناك، ويتجه تطوره نحو تيقيظ الانسان الى

أن له حقوقاً سطا عليها السالطون وأرزحوه تحت أعباء من تكاليفهم الباهظة لأجل رخائهم وسيطرتهم. ان الخط الذي مازال يسير فيه التاريخ منذ عصوره السحيقة المظلمة لخط فيه تعاريج وفيه رجعات صغيرة و كبيرة؛ ولكنه خط يتجه دائماً إلى أمام — يتقدم. والتاريخ يسير فيه بزحف بطيء ووثب حثيث، وقد ارتبط بمقدمة التاريخ الانسان المتيقظ الى حقوقه المسطو عليها - الانسان المغموط الثائر - وإلى جانبه أصحاب الضمائر الحية والادمغة النيرة الخارقة للحجب، الذين رفعهم الفكر والإخلاص الى قمته فوق التدجيل وعمل المصلحة الذاتية. فأطلوا على مروج المستقبل الخصبة وربطوا أنفسهم بمقدمة التاريخ مع الانسان، كتفاً إلى كتف، يجرون التاريخ فوق العقبات الى أمام، الى مروج المستقبل.

هؤلاء الذين رفعهم الفكر والاخلاص الى قمته، من كتاب وشعراء وعلماء وفلاسفة وفنانين ومخترعين وأنبياء ومتصوفين وثوار ومصلحين وشهداء في سبيل الخير البشري من كل نوع، فكانوا انسانيين واصطفوا في معسكر الشعب ضد أعدائه؛ قد نادتهم أصوات كثيرة تحذرهم من عواقب عملهم، من هول الانسان إذا هو انعتق وأفلت. وما صوت فولتير — على رغم كونه ممن أدوا خدمة الى التحرر من بعض نواحيه — الا واحد ممثل لكل تلك الاصوات المحذرة حين يصيح بالمفكرين الانسانيين: « تفلسفوا فيما بينكم مقدار ما تشاؤون. يخيل لي اني أسمع عشاق الفن يوقعون للذتهم موسيقى ناعمة. ولكن احترزوا احترازاً قوياً من أن توقعوا موسيقاكم أمام الجهلة، الوحشيين، السوقيين (أي جماهير الشعب) فقد يحطمون آلاتكم على رؤوسكم! » ... إلا أن المفكرين الانسانيين المخلصين لم يكترثوا لاولئك الذين ترتعد فرائصهم عند ذكر الشعب وحقوقه، فانتصبوا خلال العصور تماثيل ناطقة تشير إلى أن الانسان مقيد مظلوم

محروم؛ الى أن المجتمع يقوم على أسس جائرة عاتية تنال من كرامة الانسان وأنفته وتدفن سعادته المادية والمعنوية تحت ركام من أوساخ الامتيازات، ويرون في نشوة أحلامهم وقتاً - قريباً أو بعيداً - ينبثق فيه مجتمع تشيع فيه العدالة وتصان للانسان حقوقه . ديموقريطس ، الفيلسوف اليوناني الملقب (بالضاحك) شهد في حلمه مثل هذا المجتمع ورسم له القاعدة الآتية : « ان المجتمع الوحيد الذي يستحق الاكتراث هو ذلك المجتمع الذي يفسح لاكثرية الناس اعظم مقدار ممكن من السعادة، بأقل مقدار ممكن من الألم !» وبروتوغاروس ، الفيلسوف اليوناني الآخر لمع لخياله ما لمع لخيال ديموقريطس وقرر لنا : « ان الانسان مقياس كل شيء ، وان جميع قواه ينبغي أن تكرس لجعل هذا الوجود أجمل وأمتع للنفوس ! » وديموقريطس وبروتوغاروس اثنان من كثيرين لا يحصى لهم عدد .

ليس يضير هؤلاء المفكرين المخلصين انهم كثيراً ما انسلخوا مع خيالاتهم عن الواقع وضمنوه قشوراً . ليس يضيرهم ان المجتمع لم يكن بلغ من التطور التاريخي ماخلق الامكانيات المادية لتحقيق أحلامهم ، فاضطروا أن « يعيشوا في الشوق بدون أمل » كما يقول دانتي عن سكان جحيمه ؛ وأن « يموتوا بغيظهم » كما يقول المعري[1] ، وينحرفوا ويشذوا شتى اشكال الانحرافات والشذوذات : ينطرحون في أحضان القنوط والتشاؤم ، يسخطون ويلعنون كالمجانين ، ينسحبون من المجتمع الى زوايا نفوسهم أو إلى كهوف الجبال ، ينقلبون على أعقابهم الى ماض سحيق يتوهمون فيه العصر الذهبي ، ويشيدون عوالم أحلامهم في دنيا غير هذه الدنيا ...

كل هذه الوان من الضعف لا تضيرهم ولا تضيرنا — نحن ورثتهم

(١) في بيته: غلب المين منذ كان على الخلق ومات بغيظها الحكماء !

العقليين — شرط أن نفهمهم كما يجب · فان سير حياتهم ، بما فيها من أحلام عن مستقبل الانسان وتململات ولوعات ، تبقى ألواحاً رامزة ، إلى ما في ضمير الانسان المقيد المظلوم من شوق منفجر أو مكبوح الى حقوقه المغصوبة ، والى التحرر والتكامل ·

٣- يريدون ايقاف التاريخ وما هم بقادرين

ولكن لا ننس مؤخرة التاريخ ! فهناك ايضاً اناس قد ربطوا بها أنفسهم وأنشأوا يشدون بجميع قوى عضلاتهم الى وراء · لماذا ؟ ليوقفوا عجلات التاريخ عن السير ، ليمنعوا الانسان ومن الى جانبه من المفكرين المخلصين أن يجروا التاريخ إلى أمام ، ليبقوا الانسان تحت مواطئ أقدامهم خاضعاً لشر كتهم الاستثمارية الكبرى ·

على أن ذلك مستحيل · يستطيع الرجعيون أن يشغلوا الانسان بحروب الفتح والنهب لمجدهم وربحهم ، ويحشوا مسامع الشعب بنحو الفخر الفارغ الذي تشدق به الطاغية الاشوري سنحريب ، حين قاد حملته ضد زميله حزقيا ملك اليهود : « اكتسحت ستا وأربعين من مدنه المسورة · فاما من المدن الصغرى المنتثرة هنا وهناك ، فاكتسحت ونهبت عدداً غفيراً · وأسرت وحملت معي من هذه المواضع ٢٠٠،١٥٠ انساناً غنائم — كباراً وصغاراً ، ذكوراً واناثاً — مع الجياد والأفراس ، الحمير والجمال ، الثيران والأغنام بمقادير لا تحصى ! » يستطيع الرجعيون أن يمتعوا أنفسهم بما متع به نفسه يوستنيانوس ، حين كتب بالقلم العريض في صدر شرائعه عن سلطة الامبراطور : « له (اي : لي) فقط الصلاحية أن يسن الشرائع وأن يفسرها ! » ·

ويستطيع الرجعيون أن يدعوا الصلة بالله أو بالآلهة ، أن يشعوذوا

ويبدلوا ويظهروا بلباس الناصحين المغري الغشاش ـ لباس مريدي الخير ـ ويزدروا شرف العلم أمام الانسان ويزعموا باسان أب كاغسطينوس: «أن رجلاً كأفلاطون معتوه» و «أن المغفلين هم الذين يدخلون الجنة» و« ان العبودية هي شيء واقع بقضاء من الله ، بسبب الخطيئة، وليست هي في نظر الله جريمة على الاطلاق!»[1] يستطيع الرجعيون أن يضعوا على «اللائحة المحرمة»[2] الكتب التي يخشون منها شراً على أسس سيادتهم لما فيها من الغام ناسفة . يستطيعون أن يصرخوا صراخ سان برنار عن بطرس أبيلار المفكر الذي بدأ يأخذ بأحكام العقل ويخلع نير التقليد والتصديق الاعمى: «أنه يجر الارض جميعها وراءه . لقد حان الوقت أن نخرسه بالسلطة الرسولية!» يستطيعون أن يمسكوا رجلا كيوحنا هس يتململ عقله من قبول دعاويهم وخرافاتهم فيسخروا منه ، يقصوا شعر رأسه في شكل صليب ويلبسوه تاج ورق منقوش بصور الأبالسة ويقولوا له: «انا نكرس روحك للابالسة في الجحيم!».

يستطيعون أن يقولوا ما قاله فرنسوا الاول امبراطور النمسا في وصيته: «احكموا ولا تغيروا شيئاً» ، وأن يرددوا ما خاطب به جماعة من الاساتذة سنة ١٨٢١: «أنا لا حاجة لي بالرجال العلماء، أريد رعايا امناء فكونوا هكذا، هذا هو واجبكم ، من يدخل في خدمتي يجب أن يفعل ما آمره به ، من ليس يطيق أن يفعل ذلك ، أو من يجيئني مشبعاً بالافكار الجديدة ، فلينطلق لسبيله ، واذا هو لم ينطلق فاني أرسله!» ، يستطيعون أن يهمسوا ما همس به حاكم جنوى لوالد الثائر الوطني الايطالي (متزيني) بشأن ولده: «نحن لا نتحمل الشباب أن يفكروا دون أن يكون لنا علم بموضوع

(١) راجع كتاب اغسطينوس «مدينة الله» السفر التاسع عشر ..

(٢) Index Expurgatorius

تفكيرهم ». يستطيعون أن يصرحوا بما صرح به شارل العاشر الملك الاوتوقراطي الفرنسي : « افضل أن أنشر الخشب على أن أكون ملكا من الطراز الانكليزي »[١] وبما صرح به رئيس وزرائه ، بولينياك ، الذي تمنى لو يتمكن من محو جميع انتصارات الثورة الفرنسية الكبرى : « غرضنا أن نعيد تنظيم المجتمع ، أن نرجع الى الاكليروس نفوذهم في الدولة ، أن نخلق ارستوقراطية قوية ونسيجها بالامتيازات » . يستطيعون أن ينطقوا بما نطق به المطران هورسلي الانكليزي : « لست أدري ما هي علاقة جمهور الشعب ، في أي بلاد ، بالشرائع سوى أن يطيعوها » .

ويستطيع الرجعيون ، عند الحاجة ، أن ينفضوا عنهم لباسهم المغري الغشاش ويبرزوا بحقيقتهم الوحشية ، فيقيموا محاكم التفتيش ويحفروا سراديب التعذيب ، ويسجنوا ويشنقوا ويحرقوا (جيوردانو برونو) ومئات غيره ، ويستعيروا من السيد الرجعي الكبير مترنيخ وصفه للثورة : « بالوحش الفاغر فكيه لافتراس النظام الاجتماعي » . الا ان شيئاً واحداً يبقى مؤكداً . وهو أن الرجعيين لن يستطيعوا تجميد التاريخ وحشو دماغ الانسان بدخان الخرافات والاضاليل ، وحقن ضميره بسموم مميتة لبذور التقدم فيه ، والحيلولة بينه وبين حقوقه الى الابد وإرهابه كالنعجة . فالثائرون الاحرار قادة الانسان وطليعة جنده يقولون للاسياد الرجعيين ، وملؤهم رباطة الجأش والثقة ما قاله برونو لقضاته الذين حكموا باحراقه : « ربما كنتم تصدرون علي هذا الحكم بخوف أشد مما أتلقاه ! »

برغم الرجعيين « ان المبادئ تنمو سريعاً إذا هي سقتها دماء الضحايا » على تعبير مترنيخ ، و « تاريخ العالم ليس شيئاً سوى نمو شعور الحرية » ، على رأي الفيلسوف ارنست هيجل ، شعور الحرية الذي أوقد جمرته في

(١) يقصد ملكاً دستورياً .

الانسان ظلم أسياده ، والذي ابدع حملة الثقافة الاحرار القدماء من اغريق ورومان وعرب وأعلامَ « عصر الاحياء » ، وكلٌ من حاربوا الجهل من أي امة كانوا وزادوا سيطرة الانسان على الطبيعة وغذوه بغذاء العلم والادب المنيرين ·

* * *

٤ – النصر للانسان – هو يحفر قبور اسياده وهم يحفرون قبور بعضهم بعضاً

من منطق التاريخ — لا من المصادفة — ان تمكن الانسان من إحراز الانتصارات الجزئية على اسياده في الماضي ، وان سيتمكن من احراز الانتصار الكامل عليهم في المستقبل · من منطق التاريخ ان استطاع الانسان في معارك كثيرة ، خلال العصور ، فرض تعديلاته على الشركة الاستثمارية التي احاطه الاسياد بنطاقها تمهيداً لهدمها وقلع جذورها من تربة الوجود · ذلك لان من منطق التاريخ ان جعل الاسياد اقلية ضئيلة في كل زمان ومكان ، وجعل الانسان الاكثرية الساحقة ؛ ووضع للانسان المستثمَر مصلحة واحدة وغاية واحدة نصب عينه هي : قتل الاستثمار ؛ وقرّب له صفوفه من بعضها يوماً اكثر من يوم؛ويسر له الاتحاد والاحتشاد وزاده يقظة وبصيرة للنضال الاخير؛ بينما جعل لاسياد الاستثمار مصالح متناقضة تزيد تناقضاتها عمقاً على توالي الايام فتدفعهم في شبكة من الارتباكات ، وفرّق صفوفهم بالاحقاد والاطماع ، وصدع جبهة شركتهم الاستثمارية بتطاحن مستعر فيما بينهم — خفي صامت وبارز صاخب — حول من يكون السيد على الاسياد ؟!

ان الاسياد ، اعضاء الشركة الاستثمارية ، لا يستطيبون طعم دماء

الانسان ابن الشعب فقط ، ولكن يستطيبون طعم دماء بعضهم أيضاً ، برغم ما قد يبدو منهم من مظاهر التوافق بعض الاحيان ! توافق في أصلح أحواله لا يكون إلا تآمرياً ضد الانسان أو حركة من حركاته التحريرية؛ غير أنه سرعان ما تنجلي طبيعته السطحية وتمزقه الخلافات الناشبة في داخله بعد أن يكون خدم غرضه أو قبل .

كثيراً ما نجد أسياد الانسان من أي نوع كانوا يتقربون من بعضهم ويتساومون . كثيراً ما نرى رؤساء الدين يهتفون بما هتف به البطريرك نسطور للامبراطور ثيودوسيوس : « انقذني أيها الحاكم الجبار ، أنقذني من كل أعداء كنيستي ، وفي مقابل ذلك أعطيك السماء . قف بجانبي لإخضاع أولئك الذين يخالفون عقائدنا ، ونحن بدورنا نقف بجانبك لسحق أعدائك !» كثيراً ما نرى أمثال المطران ابتاتوس يقولون عن الامبراطرة ما قاله هو عن امبراطوره : « ليس أحد فوقه إلا الله وحده » . وكثيراً ما نرى الملوك يبجلون رؤساء الدين ، ورؤساء الدين الاشراف ، والاشراف الملوك ، ورؤساء الدين الملوك والاشراف وهلم جراً ... إلا اننا إذا نظرنا الى أبعد من ذلك نجد هؤلاء الاسياد لاينفكون يتطاحنون تطاحنهم المستمر حول من يكون السيد على الاسياد ؟! نجد البابوات يتشبثون بأن سيادتهم هي العليا ويزعمون بلسان البابا غلاسيوس : « سلطتان تحكمان هذا العالم : الاكليريكية والملكية ، الاكليريكية هي السيدة بدون ريب ، لأن الكاهن مسؤول أمام الله عن سلوك الجميع حتى الامبراطرة أنفسهم » ؛ أو يزعمون بلسان غريغوريوس السابع : « البابا هو الشخص الاوحد الذي يقبل قدميه جميع الامراء » ؛ او يزعمون بلسان انوسنت الثالث : « كما ان الله خالق الكون قد أقام كوكبين عظيمين في افق السماء : الكوكب الاعظم للتسلط على

النهار والكوكب الاصغر للتسلط على الليل ، فهكذا هو قد أقام (جلالتين) في أفق الكنيسة الجامعة : الجلالة العظمى لحكم النهار — أي الارواح — والجلالة الصغرى لحكم الليل — أي الابدان . هاتان الجلالتان هما : السلطة البابوية والسلطة الملكية !» .

فنجد الملوك يأبون هذا الزعم ويردون رداً صريحاً على الجلالة البابوية بما قاله الامبراطور فردريك الاول الالماني للبابا ادريان الرابع : «انا متسلمون هذه المملكة الامبراطورية — عن طريق انتخاب الامراء لنا — من الله وحده الذي برغبة ابنه قد ألقى هذا العالم تحت سلطة سيفين . فضلاً عن ان الرسول بولس يقول : اتق الله ... اكرم الملك . بناء على ذلك ، من يزعم اننا نحمل التاج الامبراطوري انعاماً من البابا يكون عاصياً للنظام الالهي ، ومناقضاً لتعاليم بولس ، و كذاباً !» .

فنرى البابوات يهزون عصا الحرم على رؤوس الملوك والاباطرة ، ونلتقي بالامبراطور الالماني هنري الرابع ، سنة ١٠٧٧ ، منكسراً حافي القدمين ، ماكثاً على الثلج ثلاثة أيام في ساحة قصر كانوسا يتوب من عصيانه الى البابا غريغوريوس السابع الذي قضى بحرمه وهو يحمل بيده شمعة مضاءة نفخ عليها من لهاته ، وقال : «كما أطفئ هذا الضوء هكذا أطفئ هنري الرابع !» ثم لا نلبث أن نرى الامبراطور التائب نفسه يخلع غريغوريوس ويحاول تنصيب بابا من لدنه . ونرى البارونات ، أشراف الاقطاع الانكليزي ، يغضبون لكثرة ما يقاسمهم الملك حنا غلة الفلاحين والتجار المتعاظم بضرائبه وتكاليفه المختلفة ، فيشهرون في وجهه السلاح وينتزعون منه (العهد الكبير) سنة ١٢١٥ في رونميد ، واضعين حول امتيازاتهم سياجات لا يجوز له أن يتخطاها . ونرى مرة ،

سنة ١٣٧٨ ، باباوين في روما وافينيون واحدهما يستنزل لعنات السماء على الآخر ، ويدعي لنفسه خلافة بطرس الرسول ومفاتيحه. ونرى الراهب لوثيروس يتمرد على سدة روما ، ومن ورائه امراء الاقطاع الالماني الحردون على البابا يدفعونه ويدعمونه ... وهكذا الى ما لا نهاية له من تشاحن الاسياد وتناحرهم ودسائسهم وفضحهم لبعضهم طمعاً في حصر السيادة بفريق منهم دون فريق ، أو بفئة دون فئة من نفس الفريق ـ مما يؤلف نوعاً من القصص الطويلة المفزعة التي تسميها عجائزنا « قصص الحيات ».

... أجل ليس الانسان هو الذي يحفر قبور أسياده فقط ، بل أسياده هم الذين يحفرون قبور بعضهم أيضاً ويساعدونه على حفر قبورهم . ذلك من منطق التاريخ ! الامبراطوريات القديمة تحطمت باصطداماتها الدموية مع بعضها ومع سيول جارفة من الهجرات ، وبثورات (سبارتا كوسية) من العبيد فيها إبان ضعفها . واقطاعية القرون الوسطى وسيطرة الكنيسة بشكل امبراطوري على الدنيا تلاشتا على أيدي فريق الملوك من الاسياد ، وأيدي الطبقة الشعبية الوسطى التجارية المتمولة ، الناهضة على أساس مبدإ القومية والديموقراطية والمساهلة في المذاهب الدينية . والملوك الاوتوقراطيون نخروا دعائم ملكيتهم المطلقة بكثرة نزاعاتهم ونفقاتهم ولفظوا أنفاسهم أو طأطأوا رؤوسهم أمام شعوبهم — امام الانسان الواعي المطالب بحقوقه المغصوبة.

ولكن هذا الحديث ، حديث الحساب بين الملوك الاوتوقراطيين وشعوبهم ، يستدعي فصلا جديداً ، مع رجعة الى الوراء وغوصة سريعة في نهر التاريخ لجس التيار الاقتصادي الذي يجعل التاريخ تبعاً لاتجاهه.

الانسان بحقوق سياسية ومدنية

عصر الديموقراطية الرأسمالية والمساهلة

١ـ الملوك «بنعمة الله» ونهج تفكيرهم

الملوك الاوتوقراطيون ، « الملوك بنعمة الله » ، وجهاً لوجه أمام شعوبهم ! هذا هو المشهد التاريخي الذي يبرز لعياننا في مفتتح العصور الحديثة .

أما الملوك فنهج تفكيرهم واضح اكتسبته عقليتهم ورسخ فيها خلال أزمنة عريقة في القدم . ويمكن تلخيصه في نقاط أربع :

* الملكية نظام مدبر من السماء

* الملكية حق سلالة معينة تنتقل من المالك الى الوارث الاكبر

* الملوك الذين لهم هذا الحق الوراثي المقدس مسؤولون عن سلوكهم في عروش الحكم أمام الله فقط .

* واجب الرعية الطاعة التامة ، بدون سؤالات في جميع الاحوال .

(جيمز) الأول ملك انكلترا يقول : « جدال الانسان فيما يمكن أن يفعله الله إلحاد وتجديف . جدال المحكوم فيما يقدر أن يفعله الملك — قوله إن الملك لا يستطيع أن يفعل هذا وذاك — صلابة رأس ومجلبة للمقت الكبير » . او الملك الشمس لويس الرابع عشر

سيد فرسايل يقول باختصار : « أنا الدولة » ثم يكلف نفسه شيئاً من الشرح فيزعم : « ان الذي وهب ملوكاً للعالم قد أرادهم أن يكونوا مبجلين بصفتهم ممثليه ، واحتفظ لنفسه فقط بحق الحكم على أعمالهم ، ومن يولد فرداً من الرعية فيجب عليه أن يطيع بدون تذمر ٠ تلك هي مشيئته ! » ٠

٢ ـ انحلال الاقطاعية ونهضة الطبقة الوسطى المتمولة

وأما الشعب فله اسلوب من التفكير مناقض لهذا الاسلوب الاوتوقراطي ٠ جوهره : ان الشعب هو مصدر السلطة وان له الحق إن لم ينفرد بها كلياً أن يشترك فيها مع ملوكه على الاقل ، وأن يقيد من غلواء حكمهم المطلق ٠

٠٠٠ عندما نتكلم عن الشعب في كفاحه ضد ملوكه ، في هذه المرحلة التي نحن بصددها من التاريخ ، ينبغي أن نتوقف قليلاً لنعني عناية خاصة بطبقة ناشئة من الشعب آنذاك ، صاعدة في السلم الاجتماعي ، وعليها مظاهر الصحة والنشاط ، تشتد شوكتها وتحتل مركز القيادة على رأس الشعب المكافح يوماً أكثر من يوم ٠ تلك هي الطبقة الوسطى المتمولة — الطبقة الرأسمالية أو البورجوازية إذا شئت فيما بعد ٠

يمكن رد تاريخ هذه الطبقة إلى القرون الوسطى ، الى تجار المدن الكبيرة الذين أثروا وقووا مدنهم ووطدوا استقلالها ؛ بينما البابوات والامبراطرة والاشراف آخذون بخناق بعضهم ٠

كانت مدن القرون الوسطى مندمجة في النظام الاقطاعي الشامل للدنيا حولها ٠ كانت هذه المدن تنشأ حول قصور الاشراف الحصينة والاديرة القائمة جميعاً بكبرياء على رؤوس الآكام ، المشرفة

بسلطان على ما يجاورها من قرى الزراعة الاقطاعية تحرس أجساد الفلاحين الاقنان [١] بينما الاديرة القريبة من القصور تسهر على أرواحهم . وكان سكان هذه المدن من أصل الفلاحين الاقنان ، منزلتهم لا تختلف كثيراً عن منزلة الفلاحين الاقنان أنفسهم : يفرض عليهم القصر أو الدير المجاور لهم ضرائبه الباهظة ويعاملهم على هواه .

أخذ هؤلاء الاقنان المدنيون - إذا صدق التعبير - يقومون بشيء من التجارة على اسلوب المقاوضة . يحملون بضائع بسيطة على ظهورهم في أنحاء ضيقة ؛ والمستهلكون الرئيسيون لبضائعهم قصور الاشراف وأديرة الرهبان على الآكام .

برغم الضرائب الباهظة ، الناهبة لأتعاب هؤلاء التجار الصغار ، كانت تجارتهم تنمو . وكانت تتوسع الانحاء الضيقة التي يتنقلون فيها ببضائعهم . والأشراف والرهبان راضون عنهم حامون لهم - أولاً - لأنهم قد اخذوا ثمن رضاهم وحمايتهم غالياً - وثانياً - لان هؤلاء التجار يحملون لهم بضائع طريفة تعودوها وأصبحوا لا يطيقون الاستغناء عنها .

جنباً الى جنب مع نمو التجارة وتوسعها كانت تنمو المدن نفسها ، وتنمو بسائط الصناعة بحيث أصبح التجار صناعاً أيضاً . وظهرت أيضاً طلائع النقود ، إذ ان التجارة لما توسعت الى أنحاء متباعدة وكبرت مقادير البضائع أخذت تستحيل على التجار طريقة المقاوضة في جميع معاملاتهم ، واتفقوا على مقياس يجرون معاملاتهم على أساسه . وهكذا صار من غير النادر أن ترى في ايديهم قطعاً براقة من الذهب يتداولونها ، وأن ترى في المدن هنا وهناك - خلف الموائد الخشبية - أشخاصاً

(١) الاقنان جمع قن ، وهو الفلاح المربوط بالارض يباع ويشرى معها « Serf »

من يهود وسواهم أمامهم القطع الذهبية يقرضونها ويعيشون بفوائدها (طلائع البنوك الحديثة) وسرعان ما أصبحت هذه القطع الذهبية في يد الطبقة الجديدة الناهضة ، التي تجد في حفر القبر لطغيان أشراف الاقطاع الدنيوي والكنسي ، قوة وسؤدداً ليس بعدهما قوة وسؤدد . حتى كتب كولومبس : « الذهب شيء عجيب ، من يملكه يصبح سيد ما يحتاج اليه، بالذهب يمكن حتى فتح الطريق الى الفردوس » ؛ وحتى هتف الشاعر متغنياً : « يا ذهب ! يا أصفر يا متلألئ ياثمين ياذهب ! قليل من هذا يجعل الأسود أبيض ، القبيح جميلاً ، الظلمة حقاً ، الدني، شريفاً ، الشيخ فتى ، الجبان جسوراً . ما هذا يا آلهة ! ألا تدرون؟ هذا سيسحب كهنتكم وحشمكم من قربكم ، سيخطف مخدات الرجال السمان من تحت رؤوسهم . هذا العبد الاصفر سيعقد ويفكك الاديان، يبارك الملاعين ، يجعل البرص الابيض معبوداً ، ينصب اللصوص ويسوق لهم القباً وخضوعاً وإعجاباً ، ويجلسهم شيوخاً على الكراسي . هذا هو الذي يجعل الارملة المنطفئة تتزوج ثانية ! »[1] .

اشتدت شوكة المدن — مدن ايطاليا : فلورنسا وجنوى وفينيسيا قبل غيرها — وامتدت مصالحها التجارية الى أن تجاوزت بلاداً الى بلاد ، وتخطت الغرب الى الشرق . أما امراء الاقطاع فلبثوا يفرضون الضرائب على التجار حيث يستطيعون . وحيث يشعرون بعجزهم عن فرض سلطتهم ، يؤلفون عصابات اللصوص لقطع الطرق على قوافل التجارة براً ، وقد لا يتركون سفن البحر تنجو من شرهم فيلاحقونها بأشكال قرصان .

على أن التاريخ كان قضاؤه ظاهراً ومبرماً ضد امراء الاقطاع

(١) منسوب الى شكسبير .

بجانب المدن ، لأنها قوة تقدمية وهم قوة رجعية . الحوادث إثر الحوادث كانت تجري مؤدية الى إضعاف امراء الاقطاع وتقوية المدن. وإذا لم نذكر شيئاً عن هذه الحوادث مفصلاً ، فلا بد لنا من ذكر لمحة عن الحروب الصليبية على الاقل...

دعنا من قشور الاكاذيب والتفسيرات الخاطئة التي احاطت بالحروب الصليبية ، وتولدت من العصبيات الممقوتة ، وولدت العصبيات الممقوتة . الحروب الصليبية في قشرتها السطحية الرقيقة يمكن ان تسمى دينية فقط ؛ ولكنها في حقيقة أمرها حروب اقتصادية في سبيل الفتح التجاري واستيراد البضائع الشرقية الفاخرة . وان يكن للاشراف والمتشردين والمعدمين وطلاب الغزو من كل نوع شركة فيها ، فان اشد مثيريها هي مدن القرون الوسطى التي نتحدث عنها آنياً وعن امتداد مصالحها التجارية .

كثيرون من الاشراف قضوا نحبهم في هذه الحروب . والذين سلموا رجعوا ليجدوا أنفسهم مدينين أو مقيدين بعهد من العهود . لمن ؟ ولماذا ؟

سيدنا الاقطاعي قبل ان ينحدر من قصره الحصين على الاكمة ، وينطلق الى الشرق الرومانطيقي حيث يبرز فروسيته بذبح الاطفال والنساء ، ويفسق ويشرب الخمر باسم إنقاذ قبر المسيح ؛ كان قد اقترض كثيراً او قليلاً من القطع الذهبية لسد نفقته ونفقة اصحابه . وكان شخص من الجالسين خلف الموائد الخشبية قد قرضه إياها ، أو عضو نقابة حرفية من الصناع ، أو تاجر الخ ... واحد من الطبقة الوسطى المتمولة التجارية . أياً كان الشخص القارض فلا بد له من أن ينتزع من سيده الاقطاعي فائدة أو رهناً لجزء من ارضه ، أو عهداً بحق صيد

السمك في البركة أو الساقية المجاورة لقصر فخامته .

وهكذا اصبح الاقطاعيون ينحطون في السلم الاجتماعي ، ويتخلون عن سيادتهم المطلقة بجاذب اقتصادي لا قبل لهم بدفعه . عارك الاقطاعيون عراكاً عنيفاً قبل ان تخلوا عن سيادتهم : حاولوا أن يأكلوا القطع الذهبية التي استدانوها ، أن لا يؤدوا فوائضها ، ان ينكثوا عهودهم مع دائنيهم ، ان يبقوا المدن خاضعة بالقوة الغاشمة لضرائبهم وحراسة قصورهم وحراسة الاديرة على الهضاب . غير انهم فشلوا .

ابثوا يحتاجون الى القطع الذهبية من المدن ، والمدن تنزع منهم لقاءها اراضيهم وميثاقاً ، بحق من الحقوق ، اثر ميثاق : تارة حق انشاء مجالس بلدية والاستقلال بادارة شؤونها ، وطوراً حق تشييد بناية عامة في قلب المدينة ذات برج يخزن فيه السكان المواثيق التي انتزعوها من السيد الاقطاعي ، ويضعون في رأس البرج حارساً ينذرهم بكل خطر داهم — خصوصاً خطر هجوم مفاجئ من السيد الاقطاعي وحاشيته المسلحة اذا هو حاول إعادة سيطرته بالقوة . وأخذت المدن بسبب اضطرارها المتزايد الى الايدي العاملة ، تفتح أبوابها للفلاحين الاقنان الناشزين عن امرائهم وكواليجهم ، وانشأت تعاون الملوك على محق استقلال الامراء باقطاعاتهم ، ولو استبد الملوك بالسلطة ، موقتاً وانقلبوا طغاة اوتوقراطيين ؛ وذلك رغبة في بناء دولة ممركزة توطد أمن البلاد لحسن سير التجارة — حتى تمزقت سيادة الامراء اشلاء ورأوا قصورهم الحصينة تتطاير غباراً أمام الاسلحة النارية المخترعة حديثاً التي قضت على تفوقهم الحربي ومناعة قصورهم في رؤوس التلال العالية ، وحتى أصبحت المدن وطبقتها الوسطى المتمولة التجارية انشط طبقات المجتمع وطليعته التحررية ، ضد اوتوقراطية الملوك انفسهم .

٣ ـ العراك ينشب بين الملوك الاوتوقراطيين والطبقة الوسطى المتمولة

ان الملوك بعد ان خضدوا شوكة الاقطاعيين بقوة الشعب وحصروا زمام السلطة في أيديهم لم يسلكوا سلوكاً منصفاً مع الشعب . بل هم على العكس شيدوا القصور الفخمة وجذبوا اليها الامراء الاقطاعيين اعداءهم بالأمس ، يعززون بهم سلطانهم . وحشدوا حولهم رؤساء الدين يستعينون بهم على ترسيخ دعائم عروشهم . كل ذلك احتماء من الشعب وخوفاً من ان يفرض ارادته عليهم .

كان الشعب ـ طبقة المدن المتمولة على الاخص ـ يبدو فريسة سمينة مغرية للملوك المتقلبين في أفانين الترف ، المحتاجين الى نفقات لا تنقطع من اجل ترفهم وحروبهم . كانت القطع الذهبية البراقة تبهر ابصار الملوك ويسيل لها لعابهم . ولم يكونوا بادىء بدء اقوياء ، بسبب توزع السلطة بينهم وبين امراء الاقطاع واسياد الكهنوت ، ليستطيعوا الاستيلاء على هذه القطع الذهبية بغير موافقة الشعب . فكانوا يدعون الشعب ـ الطبقة المتمولة منه ـ الى اجتماعات نقاش في شؤون الدولة لم يكن يحضرها من قبل الا الاشراف والاحبار . وهذه الاجتماعات هي نواة البرلمانات الحديثة التي ما زالت تتقوى فيها الطبقة الوسطى المتمولة حتى استولت عليها اخيراً وجعلتها الاداة التي انتصرت بها على سيادة الملوك والاشراف ورؤساء الدين .

الا ان الملوك لما استقروا في عروش الحكم وشعروا بثقة من انفسهم ،

لم يلبثوا أن حاولوا ابتزاز القطع الذهبية من ايدي الشعب — كما يشاؤون — بالضرائب الثقيلة وهم متسلحون بسلاح «حق الملوك الآلهي»، سلاح الاوتوقراطية .

هنا لم يكن بد من نشوب العراك بين الملوك وشعوبهم ومن أن تهوي الشعوب بمطارقها الصلبة على أم رأس الاوتوقراطية وحق الملوك الالهي .

ان أول ضربة للملوك الاوتوقراطيين يعود شرفها الى شعب الاراضي المنخفضة[1] فانهم ، في سنة ١٥٨١ ، عقدوا اجتماعا لبرلمانهم المؤلف من ممثلي طبقة المدن الوسطى ، ومن رؤساء الدين والاشراف . فطرد ممثلو المدن رؤساء الدين والاشراف ، وخلعوا ملكهم الشرعي فيليب الثاني الاسباني ، وأعلنوا استقلالهم في شكل « جمهورية الاراضي السبع المنخفضة » وجعلوا لهم مبرراً نظرياً ، مقابل نظرية الحق الالهي ، أشبه بما يلي : ان الملك نقض ميثاقه ، فالملك يخرج من وظيفته كأي خادم غير أمين . . .

جنَّ جنون فيليب وهاج فيه عرق البطش ، وهدد ونفذ تهديده الى أقصى ما قدر في حرب وحشية ضد الاراضي المنخفضة وشعبها الصغير الباسل . ولكنه انقلب على أعقابه خائباً خاسراً ، ونمت البذرة التي زرعتها الطبقة الهولندية الوسطى نمواً هائلا ، ونمت لها اصوات في سائر اوروبا زرعتها هناك الطبقة الوسطى المتحولة أيضاً ، وقصت رقبة ملكين كبيرين : شارل الاول الانكليزي ، ولويس السادس عشر الفرنسي .

اتخذ نمو هذه البذرة أشكالا نظرية مختلفة ، معتدلة ومتطرفة ، ولكنها لبثت واحدة في جوهرها . ويمكن إطلاق اسم « نظرية الميثاق » عليها ،

(١) هولانده .

وهي السلاح الذي تسلحت به الطبقة الوسطى الباسطة يدها للاستيلاء على دفة الدولة ، أو للاشتراك في ادارة دفتها على الاقل .

وهذه النظرية ، ككل الظاهرات الفكرية ، وإن تبلورت بشكلها النهائي في المرحلة التاريخية التي نتحدث عنها ، فهي أشبه ببركة تسربت اليها دفقات فكرية جاءت قبلها خلال العصور (دفقات من الفلاسفة الرواقيين ، ومن هيجو كروشيوس الهولاندي الخ . واشهر دعاتها هوبز ولوك الانكليزيان ، وروسو الفرنسي ؛ وأن يكن هوبز تلاعب بها وعوجها لتبرير اوتوقراطية الملوك) وأهم ما تنبني عليه هذه النظرية النقاط التالية:

* اتى على الانسان دور غارق في أبعاد التاريخ كان عائشاً فيه على الفطرة بحالة وحقوق طبيعية (بعض المفكرين يرون في هذه الحالة مثلا أعلى كروسو ، وبعضهم يقبحونها كهوبز) .

* مع تطور الحياة الاجتماعية وتعقدها ألغى الناس ، بالاتفاق الصادر عن العقل ، هذه الحالة الطبيعة ، ووكلوا سياسة امورهم الى سلطة . فالسلطة حسب هذه النظرية مصدرها الناس وعقلهم ، وليس مصدرها السماء كما يزعم الملوك الاوتوقراطيون .

* بين السلطة والناس عقد متفاهم عليه هو وليد اتفاقهم ، يفصل الحقوق من الواجبات ؛ اذا نقضت السلطة هذا العقد فانها تفقد صلاحيتها في أن تبقى سلطة .

* * *

لا بد لنا ونحن في غمار حديثنا السريع ، حديث نهضة الطبقة الوسطى وثوراتها على ملوكها الاوتوقراطيين وتثبيت دساتيرها وسيطرة برلماناتها - من أن نلتفت الى ثلاث ثورات عظمى قادتها الطبقة الوسطى ،

لانها تعتبر الثورات الديموقراطية الكلاسيكية وهي: الانكليزية ، والاميركية ، والفرنسية الكبرى .

****

٤ — الثورة الانكليزية البرجوازية

أما الثورة الانكليزية فظهرت طلائعها في عريضة الحقوق التي رفعها البرلمان البريطاني الى الملك شارل الاول سنة ١٦٢٨ . وكان شارل قد فرض على الشعب قرضاً إجبارياً وسجن من أبوا الدفع . وفي هذه العريضة ينبه البرلمان الملك الى انه يغتصب من الشعب اموالا غير مشروعة ، ويسلب امانهم وطمأنينتهم على أملاكهم بعملائه الغلاظ . ثم يبسط البرلمان امام الملك ثلاثة مطاليب اساسية :

أ - من الان فصاعداً ، لا يكون على انسان أن يؤدي عطاء أو قرضاً أو إنعاماً أو ضريبة أو أي تكليف من نوع هذه التكاليف بدون موافقة البرلمان .

ب - لا يسجن انسان حر او يجري عليه عقاب إلا بحسب قوانين الدولة ونظمها كما هو منصوص في (العهد الكبير)[1] .

ج - لا يفرض على الشعب إسكان الجنود مهما كانت الدواعي .

بلع شارل الاول هذه المطالب آنياً وان كانت شائكة على كبريائه ، واستمرت المكافحة بينه وبين البرلمان بشكل ترقب للفرص . ثم آنس من نفسه قوة لحل البرلمان العاصي ، فحله في السنة الثانية ، ١٦٢٩ ،

(١) العهد الكبير (Magna Charta) هو العهد الذي عقده الاشراف الانكليز بينهم وبين الملك حنا سنة ١٢١٥ لحماية مصالح امراء الاقطاع . الا ان فيه مبادىء حقوقية عامة استطاعت البورجوازية الانكليزية ان تتمسك بها للدفاع عن مصلحتها .

واستغنى عنه وعاد سيرته الاولى يبتز من الشعب أمواله . من جملة ذلك : « أموال المراكب » ، وهي فريضة حاول جمعها من كل الاهالي ليبني بها اسطولا خاصاً به . وكانت العادة أن تقدم الموانئ الاسطول عند الحاجة اليه وان لا يتكلف ذلك إلا سكان الشواطئ ، فتمرد واحد من الاهالي وابى دفع المقسوط عليه من فريضة اموال المراكب : عشرين شلناً . وقد اكسبه تمرده خلود اسمه في التاريخ وهو « جون همبدن » . حوكم همبدن امام محكمة الملك وحكم عليه ، ولكن باكثرية قليلة من القضاة ـ مما دل على نفسية اشمئزاز منتشرة من اعمال شارل . وزاد الطين بلة عناد ، ديني القشرة ، حاول به شارل توطيد كنيسة للدولة ، الرامية للامة جميعاً ، تدعو له طبعاً وتكون وتداً من أوتاد عرشه بين الجماهير . ولكن ذلك ساق النفوس الى التمرد وفجر ثورة في اسكوتلاندا البرسبيتيرية .

لم يكن شارل يستطيع أن يستغني عن البرلمان طويلا وهو امام ثورة الاسكوتلانديين مضطر الى قمعها ، ومضطر الى المال . ألقى يده على مركب من مراكب شركة الهند الشرقية — تلك الحزمة الاستعمارية التي كانت قد بدأت البورجوازية الانكليزية تسيرها الى قلب الهند والشرق — وباع المركب ليحصل على شيء من المال ، الا ان ذلك لم يكن ذا جدوى عظيمة ، فدعا أخيراً ، سنة ١٦٤٠ ، البرلمان المعروف « بالطويل » الى الانعقاد .

صرف البرلمان نظره عن الاسكوتلانديين وثورتهم وبدأ أعماله بالتصويت على قانون الثلاث سنوات ، الذي منح للبرلمان حق الانعقاد مرة على الاقل كل ثلاث سنوات ، وان لم يدعه الملك . ووقع البرلمان ايضاً عريضة قاسية اللهجة عدد فيها ما اقترفه شارل من أخطاء ،

وهي تعرف بعريضة «التتويج الكبير» وفيها يطلب أن يكون وزراء الملك مسؤولين أمام البرلمان . وطبع هذه العريضة ونشر منها النسخ العديدة ، في طول البلاد وعرضها .

كان هذا أشد مما يستطيع شارل هضمه . فرد بأن عزم القبض على بعض أعضاء البرلمان تخويفاً وتهويلاً . فكان عزمه هذا نذيراً بان الاصطدام المسلح بين الملك والبرلمان واقع لا بد منه ، ولم تلبث أن نشبت حرب اهلية طويلة بدأت سنة ١٦٤٢ بين جنود الملك الارستوقراطيين الطوال الشعور وسائر مناصريه ، وبين جنود البرلمان الشعبيين الحليقي الشعور وعلى رأسهم كرومويل . وتمت الغلبة أخيراً للبرلمان ولكرومويل ، وقبض على شارل وطرد من البرلمان الاعضاء الذين كانوا يدعون الى تفاهم مع العرش ؛ وحوكم الملك وتدحرج رأسه تحت فأس الثورة الظافرة سنة ١٦٤٩م .

قضت انكلترا فترة تحت حكم كرومويل وهي بلا ملوك . ثم عاد اليها الملوك ، ومنهم جيمز الثاني الذي حاول ان يبعث شيئاً من الاوتوقراطية الاولى ، الفقيدة المأسوف عليها كثيراً (منه طبعاً لا من غيره) ، ولكنه اضطر الى الهرب ، سنة ١٦٨٨ ، وجاء مكانه من يفهم حدوده ويلزمها . وأصدر البرلمان توكيداً لسيادته من جديد ، عريضة كررت سرد حقوق الامة الانكليزية الرئيسية والشروط التي يتقيد بها العرش ، وهي نسخة قريبة من عريضة الحقوق الاولى التي وجهها البرلمان الى شارل الاول .

***

٥ ـ الثورة الاميركية واعلان الاستقلال

اما الثورة الاميركية فهي ليست ثورة صرفاً من شعب ضد ملك ، ولم تكن هي قضية داخلية فحسب ، وإنما لها صفة قومية ضد استعمارية . إلا انها مع ذلك تبقى ثورة شعب ضد سلطة تريد أن تكون اوتوقراطية ، فهي والحالة هذه محسوبة في عداد الثورات الديموقراطية التي نبحثها .

سرعان ما استقر المهاجرون الذين دفعهم الاضطهاد من انكلترا « في انكلترا الجديدة » عبر المحيط الاطلنطيكي ، وأخذ يتعزز عددهم بمهاجرين جدد من جميع الانحاء ، ويكتشفوا غنى الارض الجديدة التي هم عليها ، ويشرعوا في استغلالها حتى شاءت انكلترا أن تقاسمهم غنى أرضهم الجديدة وغلة أتعابهم بحلقات من الضرائب الجائرة .

بدأت حلقات هذه الضرائب بضريبة التمغة ، سنة ١٧٦٥ ، التي فرضت على المستوطنين في أرضهم الجديدة أن يدفعوا ثمن تمغة يلصقونها على كثير من عقود معاملاتهم لتصبح نافذة معتبرة عند الحكومة . فاغتاظ الشعب واجتمع ممثلون له في نيويورك ، سنة ١٧٦٥ ، أعلنوا قانون التمغة : « اتجاهاً واضحاً للانتقاص من حقوقهم وحرياتهم » .

غير أن الحكومة الانكليزية مضت في غلوها الاستبدادي الاستعماري ، وطبقت قوانينها الجائرة في الملاحة . وهي قوانين قصدتها بريطانيا في البداءة ضد المراكب الهولندية ، مدفوعة بالحسد التجاري . ثم استعملتها وأضافت اليها حواشي ضد الشعب الاميركي . مثلا — كان أحد هذه القوانين يقضي بان جميع المنتجات الاسيوية والافريقية

والاميركية لا يجوز أن تستورد الى انكلترا او مستعمراتها إلا على مراكب انكليزية فقط . وكان قانون ثانٍ يقضي بان المنتجات الاوروبية يجب أن تستورد الى المستعمرات بواسطة عملاء انكليز، وعلى مراكب مصنوعة في انكلترا أو في المستعمرات . وكان قانون ثالث يقضي ان المسموح ببيعه للاجانب من منتجات المستعمرات يجب أن يصدّر على مراكب انكليزية . فضلاً عن ان كثيراً من منتجات المستعمرات الهامة كان لا يسمح ببيعها إلا للانكليز . وكان ممنوعاً على شعب المستعمرات أن يتعاطوا صناعات من شأنها أن تزاحم صناعات انكليزية من نوعها ، كصناعة الفولاذ مثلاً . وبكلمة مختصرة - كانت هذه القوانين تمنح امتياز احتكار شديد للتجار الانكليز ومراكبهم ، ولأصحاب الصناعة الانكليزية .

ولكن الشعب الاميركي وجد من الضروري لحياته أن لا يراعي هذه القيود ، فأهمل وجودها واستمر في نموه الاقتصادي ، فقابلت منه السلطة الانكليزية ذلك بضرائب فوق ضرائب . تسحب نوعاً منها لتستعيض عنه بنوع ، وتقيم جنوداً في المستعمرات لتسهر على عبوديتها ، حتى كانت ضريبة الشاي - القشة التي قصمت ظهر الجمل كما يقولون ...

في سنة ١٧٧٣ صعد بعض الشباب الهائج في مدينة بوسطن الى مركب من مراكب شركة الهند الشرقية الانكليزية محملاً شاياً ، وقذفوا بحمولته في البحر . وانتشر على الاثر الشعار الثوري في البلاد ، شعار : « لا ضرائب بلا تمثيل ! » . فردت السلطة البريطانية بتدابير دلت على نية قمعهم بالقوة المسلحة . فانعقد مؤتمر من المستعمرات في فيلادلفيا سنة ١٧٧٤ ، قرر أن تقطع كل تجارة مع

انكلترا ريثما ترفع جميع قيودها وتعوض عن إساءاتها الماضية وتعطي برهانا على حسن نيتها. ولكن نفسية انكلترا كانت بعيدة عن كل ذلك - فنشبت الثورة المسلحة سنة ١٧٧٥، بأن هاجمت ميليشيا الشعب الثورية، بقيادة وشنطون، الجنود الانكليزية في ليكزنغتون وقهرتها، وانعقد مؤتمر ثان من ممثلي المستعمرات مشبع بروح القنوط من كل تفاهم مع بريطانيا، وقرر وجوب الاستعداد للحرب، وأذاع في ٢ تموز سنة ١٧٧٦ «اعلان الاستقلال» الشهير الذي يستحق وقفة خاصة عنده لانه صفحة مجيدة من كتاب الحرية.

تقع هذه الوثيقة التاريخية في قسمين رئيسيين:

القسم الاول - يحتوي على الاسس النظرية التي دعم بها الثائرون قضيتهم. ويصف الثائرون هذه الاسس بأنها «حقائق واضحة من ذاتها». وهي تجري على هذا النحو:

* يخلق جميع الناس متساوين، ويهب لهم خالقهم حقوقاً لا يمكن فصلها عنهم: حق الحياة، الحرية، السعي وراء السعادة.

* من أجل حفظ هذه الحقوق تقام الحكومات مستمدة سلطتها العادلة من رضى المحكومين.

* أي شكل من أشكال الحكومة يصبح منافياً لهذه الحقوق، فالشعوب لهم حق تبديل أو الغاء هذا الشكل من الحكومة، واقامة شكل آخر جدير بأن يكفل للشعب سلامته وسعادته.

(هذه أفكار أكثرها مستمد من لوك، وقد تبيناها في نظرية الميثاق).

والقسم الثاني من «اعلان الاستقلال» فيه لائحة طويلة من شكاوى المستعمرات ضد ملك انكلترا، جورج الثالث. ولاحاجة


للتوثيق والأبحاث
Documentation & Research



للتوثيق والأبحاث
Documentation & Research

ووطء حقولهم وتخريب مواسمهم واتلاف مبذوراتهم طلباً للقنص وشغفاً بتربية الحمائم في الابراج وترك الغزلان والأرانب تسرح وتمرح.

وكان الاشراف والاكليروس لا يؤدون ضريبة الاعناق ولا يساهمون في السخرة على الطرقات.

وكانت الوظائف العالية في البلاط والكنيسة والجيش تكاد تكون احتكاراً تاماً للنبلاء.

بينما جماهير الامة — الطبقة الثالثة كما يسمونها وعدد أفرادها يبلغ حوالي خمساً وعشرين مليوناً - رازحة تحت جميع هذه الأثقال القاصمة للظهر، وليس (فنلون) على مبالغته في سواد الصورة التي يرسمها عن فرنسا كاذباً حين يقول عن بلاده إنها أصبحت «مستشفى عظيماً مملوءاً بالويلات، فارغاً من القوت».

حالة كهذه لا يمكن أن تستمر بدون دفع الناس الى الاستياء واحراجهم الى طلب المخرج مما يحيط بهم من شباك المظالم. كان الناس يتنسمون أريج الحريه ونفحاتها من الجمهورية الاميركية الصبية التي ساعدوا هم مادياً على صون حياتها من مخالب أعدائها الاقوياء، ويسمعون من (منتسكيو) و(فولتير) حديث الملكية الدستورية في انكلترا ويتلقون من فلاسفتهم ومفكريهم — برغم التضييق المرهق على النشر والكلام والاجتماع — أشعة تنيرهم، تبحث لهم المظالم الفاتكة بهم، وتنفخ لهم في بوق الاصلاح والثورة، وتجهر بمبادىء هي وليدة يقظة الأمة الانسانية: البشر بحكم الطبيعة متساوون، جميعهم لهم الحقوق الطبيعية في السعي وراء السعادة، في حماية أنفسهم والتصرف باشخاصهم وأملاكهم، وفي المقاومة للظلم والتعبير الطليق عن آرائهم، الشعب هو السلطان، وكل حكومة ليست قائمة على رضى الجماعة هي اغتصاب.

وهكذا تشبعت الجماهير يوماً أكثر من يوم بروح النقمة والثورة . وشعر الاسياد بانتشار هذه الروح شعوراً جلياً ، فقال أحد وزراء لويس السادس عشر : « قوة خفية لا خزينة لها ولا حرس ولا جيش كانت تخيم على باريس والبلاط - أجل على قصر الملك نفسه » وقال لويس السادس عشر ذاته : « يخيل إلي أن الكون يريد أن ينقض علي ! » .

ولئن كان لويس الخامس عشر هتف مستهتراً : « بعدنا الطوفان » ، فان الاسياد جميعاً لم يكونوا على هذا القدر من الاستهتار المنكر بل حاولوا شيئاً من الاصلاح - ولكن الاصلاح بدا مقصاً مخيفاً يقتطع من امتيازاتهم ؛ وهم ، لتيبس أدمغتهم وتحجر قلوبهم ، يرفضون أن يقتطع ولو بعض حواشي تلك الامتيازات .

كان ظاهراً لكل ذي عينين أن الخزينة الزاحلة إلى هاوية الافلاس يمكن أن تلطف كثيراً من حراجة الموقف بتوفير في نفقات البلاط ، من عهد لويس الرابع عشر ، عندما باع وكيل التوفير في البلاط نصف الخيول من الاصطبلات الملكية ، قال فولتر بتهكمه الفج : « كم كان أقرب الى المعقول لو صرف نصف الحمير الذين يعج بهم البلاط الملكي ! » .

فلما تسلم (تيرغو) وزارة المالية ، سنة ١٧٧٤ ، كان بنده الاصلاحي الاول : الغاء أو تخفيض الوظائف والمعاشات والنفقات التي لاضرورة لها . ونستطيع أن نتصور كم كان يعود هذا التدبير بالفائدة على الخزينة لو نفذ ، إذا عرفنا أن الملك والملكة والامراء الذين يجري في عروقهم الدم الملكي كانوا ينعمون بما يعادل ١٢ مليون دلاراً ، والملك وحده أيضاً يبدد ١٢ مليونا أخرى إنعاماً على حاشيته ومحظياته !

وكان بند تيرغو الاصلاحي الثاني : تعديل نظام الضرائب وتخفيفها عن كاهل الشعب باشراك أصحاب الامتيازات المعفين منها سابقاً.

إلا أن تيرغو اصطدم بصخرة صماء أقامها في وجهه كل الذين خافوا شره على جيوبهم ، وخرج من الوزارة معزولا مكسوفا سنة ١٧٧٦ .

جاء بعده الوزير (نكر) . فتجنب طريقته وترك القديم على قدمه، ولجأ الى الطريق السهلة المشهورة : طريقة التغطية بقرض بعد قرض، حتى لم يعد يستطيع الحصول على قروض اخرى فزاد الطين بلة . وخدم الثورة في تقريره المالي الذي رفعه الى الملك ، سنة ١٨٧١ ، بأن يسر للناس الاطلاع على كيف يتبخر دخل الحكومة العظيم من الضرائب التي تسلخها من لحمهم الحي .

وجاء بعد نكر (كالون) . فوجد أن لا مناص من السير في سياسة إصلاحية أشبه بسياسة تيرغو . أصدر للملك تقريراً مالياً مشيراً الى التدابير التي يمكن اتخاذها لدرء الخطر المعلق بشعرة كسيف ديموكليس البتار فوق رأس النظام القائم ، وكان كالون يرى أوضح من الصبح ان أعند ما سيصطدم به هو حمل أصحاب الامتيازات على التنازل عن امتيازاتهم فيما يخص إعفاءهم من الضرائب . وكان يأمل أن يستدرجهم الى القبول بضريبة على الارض يدفعها الجميع . فاستأذن الملك في دعوة مؤتمر من الاعيان : الاشراف ورؤساء الدين على الاغلب - يبحثون بعض تدابير إصلاحية من شأنها تحسين الحالة . فأذن له الملك .

انعقد « مؤتمر الاعيان » سنة ١٧٨٦ . وألقى كالون في جلسته الافتتاحية خطاباً أعلن فيه مصاب خزينة الحكومة بعجز يعادل

أربعين مليون دولاراً سنويا . وأكد أن طريقة التغطية بالقروض أصبحت مستحيلة ، وأن التوفير لا يمكن أن يغطي العجز . ثم تساءل عن سبب الأزمة وعما يمكن اتخاذه من علاج قائلا : « المظالم التي يجب أن تباد من أجل هناء الشعب هي أخطر المظالم المقامة حولها أشد التحصينات حماية لها ، هي المظالم التي لها أعمق الجذور وأوسع الفروع امتداداً . مثلا - المظالم التي تقع بثقلها على الطبقات العاملة - الامتيازات والاستثناءات من حكم القانون الذي يجب أن يكون مشتركا بين الجميع ، والإعفاءات الكثيرة غير العادلة التي تخفف الوطأة عن بعض دافعي الضرائب بتسوىء أحوال الآخرين ، والحاجة العامة الى نسق واحد في تقدير الضرائب ، والفرق العظيم الملموس بين ما تؤديه المقاطعات المختلفة ورعايا الملك الواحد » . وأضاف كالون : « إن اصلاح هذه المظالم لا بد أن يعود على الحكومة بثروة تستخدمها لتوطيد نظام المالية المنهار » .

هز الاعيان أكتافهم وقلبوا شفاههم وذهب كلام كالون في الهواء . فصرف الملك كالون من الوزارة ثم اتبعه الاعيان ، ورجع الى سالف عهده من عقد القروض . ولما كان الدائنون يخشون على أموالهم الضياع بسبب إفلاس الخزينة ، حاول الملك أن يؤمنهم بجعل أهم مجالس المقاطعات ، مجلس باريس ، يصدق على عقد القروض سنة ١٧٨٧ . إلا أن الملك اصطدم بخيبة مرة ، إذ أن مجلس باريس رفض التصديق ، ولم يكتف بذلك فأعلن : « إن الامة فقط مجموعة في مجلس ممثلي طبقاتها »[1] يمكنها أن تعطي موافقتها على إنشاء ضريبة دائمة » وزاد في إعلانه :

(1) Etat Généraux

« ان الامة فقط بعد اطلاعها على حقيقة حال المالية يمكنها أن تمحق المظالم وتفتح مصادر جديدة للدخل ».

وقف لويس السادس عشر وراء المتراس القديم — متراس «الحق الالهي » — ، وجعل مستشاره يصرح لمجلس باريس وهو حاضر : ان السلطة العليا هي للملك وحده ، وأن الحساب عن حسن قيامه بسلطته يؤديه لله الخ .. وتمتم بين أسنانه ، حين احتج المجلس وأصر على رفض التصديق : « سيان عندي !... انه قانوني لاني أريده ! »

غير أن متراس « الحق الالهي » لم يكن ليغني عنه شيئاً . وبدأت الاضطرابات ، طلائع الثورة ، تنشب في أماكن عديدة . واضطر أن يعلن موافقته على دعوة مجلس ممثلي طبقات الامة الى الانعقاد ، في أيار سنة ١٧٨٩ ، كما طلب مجلس باريس ، بعد إجراء الانتخابات .

مجلس ممثلي طبقات الامة لم يكن قد اجتمع منذ سنة ١٦١٤، اي منذ ١٧٥ سنة . ولم تكن الجماهير تعرف عنه إلا الشيء القليل أو لا شيء على الاطلاق . وهو في حقيقته مجلس أو ثلاثة مجالس بالاحرى ، تتحدر من أواخر الزمن الاقطاعي ، كل مجلس يضم ممثلين متساوين في العدد لطبقات الامة الثلاث : الاشراف ، الاكليروس ، جماهير الشعب أو الطبقة الثالثة . ولم يكن ممثلو كل الطبقات يجلسون أو يصوتون سوية .

فاتضح لشعب منذ البداءة أن مجلساً يكون فيه ممثلو الاشراف ورؤساء الدين ضعفي ممثليهم لن يستطيع أن يحقق ما ينشدونه من إصلاح ؛ لان الاشراف ورؤساء الدين قد دلوا فيما مضى على تشبث فظيع بامتيازاتهم . وأي حق للاشراف والاكليروس في هذا العدد من الممثلين والشعب أضعاف أضعافهم ؟

« ما هي الطبقة الوسطى ؟ » تساءل الاب (سييه) الثائر في إحدى كراريسه « هي كل شيء ! » « ماذا كانت حتى الان في النظام السياسي ؟ » « لا شيء ! » « ماذا تريد في أن تكون ؟ » « تريد أن تكون شيئاً ! » .

اجل ، كانت الطبقة الوسطى ، قائدة الشعب المكافح اذ ذاك ، تريد ان تكون شيئاً . وقد انتصرت ، وانتصر معها الشعب ، في مسألة عدد ممثليها في البرلمان ، لان الوزير نكر ، الذي استرجعه الملك آملاً أن ينجح في تنظيم المالية ، وافق على أن يكون للطبقة الثالثة عدد من الممثلين مساوٍ لعدد الطبقتين الباقيتين جميعاً .

بقيت مسألة التصويت . هل يصوت ممثلو كل طبقة على حدة ام يصوتون جميعاً ؟ لبثت هذه المسألة معلقة ، لأن نكر لم يوافق على تصويت الممثلين جميعاً كهيئة واحدة ، مع ان الشعب ، في الكراريس التي اوعز اليه بتحضيرها وبسط رغباته فيها ، كان صريحاً في طلب تصويت الممثلين جميعاً .

ويجدر بنا القول ان الشعب في هذه الكراريس كان صريحاً ايضاً في طلب الدستور ، وفقاً لما جاء في احدى الكراريس : « بما ان السلطة المطلقة قد كانت منبع كل الشرور المبتلاة بها الدولة ، فان رغبتنا الاولى هي انشاء دستور وطني ، دستور يحدد حقوق الجميع ويسن القوانين لصيانة هذه الحقوق . »

اخيراً ، في ٥ أيار سنة ١٧٨٩ ، اجتمع مجلس ممثلي طبقات الامة . ونشب تطاحن عنيف كان لابد ان ينشب حول مسألة التصويت : هل يصوت الممثلون بالافراد . ام بالطبقات ؟ رفض ممثلو

الشعب طريقة التصويت على حدة بالطبقات ؛ وبعثوا الدعوات الى ممثلي الاشراف والاكليروس لينضموا اليهم ، فأبت ذلك اكثريتهم . وكان الحماس العام وراء ممثلي الشعب فتشجعوا واعلنوا الجمعية الوطنية في ١٧ حزيران سنة ١٧٨٩ م ، وعزموا على استلام مهام الحكم ، بالاشراف والاكليروس او بدونهم ، طالما هم يمثلون ٩٦ بالمئة ، مع ترك الباب مفتوحاً على مصراعيه لمن يريد الانضمام اليهم .

واقسموا قسمهم الشهير ، في ٢٠ حزيران ، في الساحة : وكان القسم يقضي : « ان يجتمعوا حيثما تتطلب ذلك الظروف حتى تتأسس اركان الدستور . »

في ٢٣ حزيران ، عقد الملك جلسة جامعة لممثلي الطبقات الثلاث ، وأملى صفحات طويلة من اصلاحات في نيته تحقيقها . ثم أمر النواب ان يتفرقوا ليعودوا الى طريقة الاجتماع القديمة على حدة . فاطاعه فريق كبير من علية الاشراف والاكليروس . ومكث الباقون في مقاعدهم . فامرهم الآمر أن يطيعوا الملك ، فجاء جواب ميرابو راعداً : « نحن هنا بارادة الشعب ، ولن نتفرق الا على رؤوس الحراب . »

ظهر تماماً ان الجمعية الوطنية قد اكتسحت الموقف ، وان الشعب قد هب لتحطيم نيره . وامتدت الثورة المسلحة الى المناطق الريفية وشملت بعاصفتها الفلاحين ، فطفقوا يثبون على قصور الاشراف ويلقحون النار ما يجدون فيها من صكوك الفرائض السنوية على الفلاحين ، ويصيحون بالاشراف : إن زمان امتيازاتهم يلفظ انفاسه . فعقدت الجمعية الوطنية جلسة تاريخية ليلة ٤ آب وسطرت لائحة الاصلاحات

المتعلقة بالفلاحين وأوجهتها بهذه العبارة : « ان الجمعية الوطنية الغت النظام الاقطاعي الغاء باتاً . »

وفي ١٤ تموز سنة ١٧٨٩ ، قام الشعب بالعمل الرمزي الكبير : هدم الباستيل وبعث القائد لافاييت بمفتاح السجن الارهابي المظلم الى وشنطون القائد المحرر الاميركي رمزاً لما غنموه من اسلاب الاستبداد . » - أي رمزاً لانتصارهم التاريخي العظيم .

لسنا بحاجة الى ان نتوغل في تفصيل حوادث الثورة وتاريخ فرنسا ، وانما نلتفت الى ما انتجته الثورة من مبادىء ثورية في الحكومة والدولة .

هناك وثيقة يجب أن يقف عليها كل من يريد الاطلاع على ثمرة الثورة الفرنسية وروحها . وهي وثيقة خالدة في تاريخ الانسانية . ولئن كان بعض النقاد يحاولون التقليل من قيمتها بحجة أن ما فيها هو حلم جميل - حلم جميل فقط ! - فينبغي لهؤلاء النقاد أن يعلموا الاحلام الجميلة هي عامل في تاريخ الانسان ، وان من أدلة حب سان للتكامل هذه الاحلام الجميلة نفسها ، التي تسبق واقع الامور بمئات والوف السنين .

انتهى نص حقوق الانسان بشكله الاخير في ٢٦ آب سنة ١٧٨٩ وأذاعته الجمعية الوطنية على الشعب قائلة في ندائها : « ان حقوق الانسان قد أسيء تصورها واهينت مدى أجيال كثيرة . وان حقوق الانسان ستوطد دعائمها للانسانية جميعاً في هذا الاعلان الذي سيظل صرخة حرب دائمة في وجه جميع الظالمين ! » .

وفيما يلي خلاصة لأهم بنود الاعلان :

* يولد الناس أحراراً ويظلون كذلك متساوين في الحقوق . والحقوق هي : الحرية ، الملكية ، الأمن ، مقاومة الظلم .

* حدُّ الحرية أن يباح للانسان عمل كل ما يريد شرط أن لا يؤذي غيره .

* التفاضل الاجتماعي لا يمكن أن يقوم إلا على أساس المصلحة العامة .

* الشرائع هي ظاهرة منبثقة من الارادة العامة . وحق لكل مواطن أن يشترك شخصياً أو عن طريق نائبه في سنها ، ويجب أن تكون سواء للجميع .

* كل المواطنين في حكم الشرائع سواء . ولذلك يمكن لجميعهم الدخول في المناصب والوظائف على قياس كفاءتهم وذكائهم .

* لا يمكن أن يتهم شخص ، أو يقبض عليه ، أو يسجن إلا في حالات محصورة في القانون ، وطبقاً لأساليب مشروحة فيه .

* كل المواطنين لهم الحق أن يقرروا شخصياً أو عن طريق نوابهم ، فيما إذا كانت الاعانات العامة ضرورية أم لا ، ولهم الحق ان لا يدفعوا الاعانات إلا عن حرية ، وأن يعلموا في أي الوجوه سيجري إنفاقها . ولهم الحق في أن يحددوا نسبة الضرائب واسلوب تقديرها وجمعها ومدى دوامها .

* حق الملكية مقدس لا يستطيع أحد نزعه ما لم تستوجب ذلك المصلحة العامة ، وما لم تكن الحاجة اليه ثابتة ثبوتا قانونياً لا مناص منه ، وما لم يكن قد عوض عن الملكية المنزوعة بثمن عادل .

* الهيئة الاجتماعية لها الحق في أن تطلب من كل موظف حساباً عن سيرته في الادارة .

* لا يجوز أن يُزعج أحد بسبب عقائده — دينية وغيرها — بشرط أن لا تكون المجاهرة بها مخلة بالامن العام الذي أثبته القانون .

* ان التبادل الحر فيما يخص الافكار والآراء لمن أثمن حقوق

الانسان . بناء عليه ، كل مواطن له أن يتكلم ويكتب ويطبع بحريه مع العلم انه مسؤول عن إساءة استعماله هذه الحرية حسب ما ينص القانون .

* من مبادئ الثورة أن تكون السلطة للامة . وشعارها: الحرية ، الاخاء ، المساواة !

ان هذه الحقوق التي أعلنتها الثورة الفرنسية للعالم هي : الجنى الذي أثمرته شجرة الديموقراطية في ابان ازدهارها.

والآن نتقدم الى فصل ثان ، ونعود الى مرافقة التطور التاريخي تمهيداً لفهم آفاق جديدة من الحقوق فتحها أمام الانسان.



الانسان بأوسع حقوقه

عصر الاشتراكية

١ ـ خلاصة حقوق الانسان

التي اثمرتها الديموقراطية البورجوازية:

لا بأس أن نقدم، في مفتتح هذا الفصل، خلاصة لحقوق الانسان في ظل الديموقراطية الرأسمالية التي درسناها، كما تظهر هذه الحقوق ناضجة في أهم دساتير العالم، خصوصاً الدستور الانكليزي والاميركي والفرنسي. ونرى أن تكون الخلاصة على الصورة الآتية:

حق الحياة والحرية الشخصية: لا يمنع الانسان من التمتع بحياته وحريته شخص - أي: لا يقبض عليه، ولا يوقف، ولا يسجن، ولا يعدم، إلا بالشكل الذي ينص عليه القانون، وبعد أن يكون قد ابيح له حق الدفاع عن نفسه اباحة كاملة ووجده القانون مسؤولا عن ذنب يقتضي إجراء العقاب بحقه.

حق التعبير: يتمتع الانسان بحق حرية الفكر والكلام والطباعة والنشر والخطابة والتظاهر وعقد الاجتماعات، وحق حرية الانتخاب لممثليه في الحكومة، ورفع الاحتجاجات والعرائض إلى السلطات. وبعض الدساتير الثورية تبيح للانسان حق الثورة على

الحكومة الظالمة ، كدستور سنة ١٧٩٣ الفرنسي الذي يقول : « متى خرقت الحكومة حقوق الشعب أصبحت الثورة حقاً مقدساً للشعب ، ولكل قسم منه واجباً لا مناص منه ! »

حق الملكية : يتمتع الانسان بحق ملكيته الخاصة ، فلا يجوز النيل من هذا الحق بأي صورة من الصور سواء اكان ذلك بالمصادرة او الحجز او فرض الضرائب ، إلا في احوال تقتضيها المصلحة العامة ويستوجبها القانون بنصوص معينة .

حق العقيدة والعادات : يتمتع الانسان بحق ممارسة عقيدته الدينية وعاداته وحفظ تقاليده . والقانون يحميه من اضطهاد يناله بسبب ذلك ، ومن تحقير يمس بكرامة عقيدته وعاداته ويستفزه .

٢ ـ الديموقراطية البورجوازية تهمل حق الانسان الاقتصادي

إذا دققنا البحث في هذه الحقوق التي أباحها للانسان عصر الديموقراطية الرأسمالية في إبان نضجه فاننا نجدها تتناول جانبين من حياة الانسان فقط : جانب الحياة المدنية وجانب الحياة السياسية . وهذان الجانبان على أهميتهما لا يزال يعوزهما جانب ثالث حتى يتما ، ذلك هو الجانب الاقتصادي . فان الانسان إذا كان سياسياً بالطبع كما يقول أرسطو ، ومدنياً بالطبع كما يقول ابن خلدون ، فهو اقتصادي بالطبع ايضاً كما يشهد الواقع .

الديموقراطية الرأسمالية امنت الانسان على حقوق سياسية ومدنية ، ولكنها لم تؤمنه على اي حقوق اقتصادية مع ان الواقع يشهد ان كثيراً من القدرة على ممارسة الحقوق السياسية والمدنية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بطاقة الانسان الاقتصادية . الديموقراطية الرأسمالية رفعت في

ميدان الاقتصاد شعاراً: «دع التيار يجري على هواه»[١] وهذا ليس تحقيراً منا للديموقراطية الرأسمالية، فانها كانت خطوة تقدمية جبارة بالقياس الى ما سبقها، ولكن رغبة في تكميلها حتى تصبح اعم وأشمل - أي حتى تصبح ديموقراطية اشتراكية.

وهنا، لا بد لنا أن نلتفت قليلا الى الطبقة الوسطى المتمولة، البورجوازية، فنتابع سير تاريخها بعد ان عرفنا كيف قادت ثورات المجتمع التحريرية ضد طغيان الاقطاعية والملوك الاوتوقراطيين. فان هذا ضروري جداً لفهم نقائص ديموقراطيتها، وفهم الديموقراطية الاشتراكية التي تولد منها وتنتصر عليها وتضيف اليها ما كان ينقصها من تأمين الجانب الاقتصادي من حقوق الانسان، مع سد اي نقص آخر يكون فيها.

للطبقة البورجوازية رأي واضح في مهمة الحكومة نادت به، وهي لا تزال في دور ثوراتها على الاقطاعية والاوتوقراطية. يتلخص هذا الرأي في كلمات (هوراس كريلي) من مفكري الثورة الاميركية الاستقلالية، حيث يقول عن الحكومة: «يجب ان تشجع وتنشر الصناعة، العلم، الاختراع، الرقي الاجتماعي والمادي»...

إذن، فالطبقة البورجوازية استلمت الحكم ولها هدف تقدمي عظيم: الصناعة، العلم، الاختراع، الرقي الاجتماعي والمادي... وليس من ملم بالتاريخ ينكر على البورجوازية توفقها الهائل في تحقيق هدفها التقدمي العظيم. فتحت رعايتها تحققت الاختراعات الآلية المدهشة التي قلبت أساليب الانتاج رأساً على عقب، وضخمت مقادير الانتاج الى

(١) Laissez - faire

حد لم يسمع بمثله في التاريخ ، وسلطت الانسان على استثمار موارد الطبيعة تسليطاً لم يكن بامكانه من قبل – مما يدخل جميعه تحت اسم الثورة الصناعية التي دارت دواليبها في اواسط القرن الثامن عشر ولا تزال دائرة : « ليس من امبراطورية أو شيعة أو نجمة ظهرت وكان لها السلطان أو التأثير على قضايا البشر ، كهذه المستنبطات الآلية » يقول الفيلسوف الانكليزي فرنسيس باكون .

الثورة الصناعية هي التي خلقت المصانع الحديثة الرائعة والمدن العصرية العاجة بالسكان والمشاغل ، ودفعت التجارة الى اقصى زوايا الارض ، وحاكت شبكة احاطت بالعالم كله . واختصرت ابعاده ، وقضت على عزلته القديمة عن بعضه ، وجعلته في كل مكان يتأثر مباشرة أو غير مباشرة بما يجري في المكان الآخر .

غير ان البورجوازية ، بما قام تحت قيادتها ورعايتها من ثورات على الاقطاعية والاوتوقراطية وثورات صناعية ، كانت ترمي الى مصلحة طبقية انانية ، وان كنا لا ننكر ان تحقيق مصلحتها الطبقية الانانية كان يوافق التقدم التاريخي آنذاك .

البورجوازية ثارت على الاقطاعية ، وعلى الكنيسة التي كانت اقطاعية هي الاخرى ، لانها كانت تريد تحرير الفلاحين الاقنان ، لا من سيادة الاقطاعيين البغيضة فقط ، بل من صلتهم بالارض ايضاً ، اذ بدون ذلك يستحيل جرهم من أريافهم الى مدنها الصناعية ليعملوا لها فيها في المصانع . البورجوازية ثارت على نظام الصناعة في القرون الوسطى ، وعملت على تجريد الحرفيين الصغار من أدوات انتاجهم وأخرجتهم من حوانيتهم الضيقة وفضت نقابات القرون الوسطى [1] لتدفع بهم الى

(١) Guilds

مصانعها الكبيرة ، وتزيل مزاحمتهم لها وتجعلهم متوكلين عليها . البورجوازية ثارت على الاوتوقراطية لأن الملوك المطلقين « الملوك بنعمة الله » كانوا يقيدون نمو ثروتها وتجارتها بسلاسل ثقيلة من ضرائبهم وتكاليفهم التي يفرضونها على هواهم . البورجوازية بثوراتها كانت ترمي الى تنصيب ديكتاتوريتها المطلقة على المجتمع ، وإن رفعت علم الحرية والتساوي والاخاء .

٣ - البورجوازية ترمي أولا الى تنصيب ديكتاتوريتها الطبقية المطلقة

والواقع أن البورجوازية ، وهي لا تزال في دور ثورتها واستلام الحكم ، كانت تتكلم صراحة بين الحين والآخر ، بقصد حق الانتخاب - اي الاشتراك في بناء كيان الحكومة - على من يتمتعون بمقدار من الملكية الخاصة . هذا (بابوف) يقول في الجمعية التأسيسية الفرنسية ، سنة ١٧٩١ :

« إن أبناء الوطن الذين يضطرون بسبب فقرهم الى الشغل حتى يقضوا حاجاتهم لا يتمكنون من أن يكون عندهم بصيص معرفة لا بد من وجودها في الانسان حتى يحسن الانتخاب ولا يبالون بالمحافظة على النظام الاجتماعي الراهن »

وهذا (بواسي دانغلاس) يقول في تقرير عرضه أثناء وضع دستور السنة الثالثة الفرنسي :

« ان المرء الذي لا مال عنده قلما يتحلى بالفضيلة التي تدفعه الى المحافظة على نظام اجتماعي لم يترك له شيئا . والى اعتناق الآراء

المتينة التي تجعله يرجح الخير الحقيقي على الخير الظاهر ، والمنفعة المستقبلة على المنفعة الحاضرة . فاذا منحتم الرجال العاطلين من المال حقوقاً سياسية بلا قيد وشرط ، وأصبح لهؤلاء مقاعد في المجالس الاشتراعية فانهم يحدثون اضطرابات كثيرة من دون أن يخشوا عاقبتها؛ وإنهم لضرائب مشؤومة على التجارة والصناعة . فبلاد يحكمها أرباب الثروات لا تلبث ان تتقهقر الى الحالة الوحشية عندما يقبض على زمامها اناس لا يملكون شروى نقير » .

ويلاحظ المطالع لأخبار الدساتير الفرنسية مثلا تمسك البورجوازية العنيد بقصر حق الانتخاب عليها من أقوال لكبار الثائرين ، هي أشبه باحتجاجات على هذا العنت من البورجوازية . لنأخذ مثلا قول (روبسبيار) في الجمعية التأسيسية ، ٢٢ تشرين الاول سنة ١٧٨٩ :

« ان لابناء الوطن جميعهم ملء الحق بأن يشتركوا في انتخاب الممثلين . ولا شيء مثل ذلك يلائم (اعلان الحقوق) الذي نشرتموه وقلتم فيه بوجوب إبطال كل امتياز وتفاوت واستثناء . يصرح الدستور بأن الامة هي موئل السيادة ، وقد عنى بالامة أبناءها كلهم . فلهذا يكون لكل واحد منهم حظ في وضع القوانين ، وإلا لم يكونوا متساوين في الحقوق » .

ولنأخذ مثلا آخر قول الأب (سييه) في الجمعية التأسيسية الفرنسية سنة ١٧٨٩ :

« قلما تشبه شعوب اوروبه الحديثة شعوب القرون القديمة . ففي هذه الايام لا يالحظ غير التجارة والزراعة والصناعة . وان الشوق الى

الثروات يجعل دول اوروبة كناية عن مصانع واسعة على ما يظهر. وفي هذه المصانع الكبيرة يفكر في الانتاج والاستهلاك أكثر مما في السعادة ، ولذلك ترانا مرغمين أن لا نرى في سواد الناس سوى آلات للعمل . ومع ذلك فانتم لا تستطيعون أن تحرموا هذه الجموع غير المتعلمة ، المنهمكة في الشغل ، صفة المواطنين والتمتع بالحقوق الوطنية . والعلة هي أنها لما كانت مكرهة على طاعة القانون وجب أن تشترك في سنه » .

ولنأخذ لنا مثلا ثالثاً تصريح (ماراه) عندما أبت البورجوازية الفرنسية منح حق الانتخاب إلا لاولئك الذين عدتهم مواطنين عاملين - أي : يدفعون قدراً ما من الضرائب ، فحرمت بذلك حوالى ثلاثة ملايين من الرجال وحدهم استطاعة التصويت . قال (ماراه) :

«حتى أرى الآن أن وضع الامور يلائم تماماً مصالح الاغنياء والدساسين . يا شيوخ المجلس ! لقد كان مفروضاً فيكم أن تعنوا عناية خاصة بتأمين حق متساو لكل المواطنين كي يتمتعوا بخيرات المجتمع . أنتم في هذه الدقيقة قد اعترفتم ان جميع الناس المتساوين في نظر الطبيعة ينبغي أن يفسح لهم المجال بدون أقل تمييز ليشغلوا المراكز التي يصلحون لها . والآن انكم لتتمادون حتى نراكم تعتبروننا غير صالحين لتعيين من يشغل تلك المراكز ! ومن يدري ؟ لعلكم أخيراً تحرموننا لقب مواطن . وهكذا فان إعلانكم الشهير عن حقوق الانسان لم يكن إلا ملهاة تافهة لتسلية المجاذيب ما زلتم تخشون أن تغيظوهم ، وليست النتيجة في النهاية إلا تسليم جميع الامتيازات — لأيدي الاغنياء — وإسباغ مفاخر النظام الجديد عليهم . وإذن فالثورة العظيمة لم تكن إلا لمنفعة طلاب الوصول الى مآربهم !»

والواقع أن البورجوازية استطاعت حرمان جماهير الامة الكادحة المجردة من الملكية الخاصة حق الانتخاب في بلاد كثيرة ، ومدة أوقات طويلة ، حتى اكتسبت هذه الجماهير حق الانتخاب بنضال قاس عنيف كلفها هرق الدماء الغزيرة.

والى هذه الاثرة الشديدة في نفس البورجوازية ، الى حب جعل ديموقراطيتها منحصرة في ذاتها إذا كان لا بد من ديموقراطية ، يشير رئيس الولايات المتحدة فرنكلين روزفلت في إحدى خطبه الاخيرة :

« في طليعة القرن التاسع عشر كانت تجري الخصومة المستمرة بين أولئك الذين ، كاندريه جاكسون ، يؤمنون بديموقراطية يسيرها أهل البلاد لأهل البلاد جميعاً ، واولئك الذين ، كمديري بنوك الولايات المتحدة وأصدقائهم أعضاء مجلس الشيوخ الاميركي ، يؤمنون بحكومة يديرها الى الابد جوقة من البشر قائمون على رأس السلم الى الابد !..».

إذن ، فنحن لا نتهجم على البورجوازية إذا وصفناها بالانانية ، بحب تنصيب ديكتاتوريتها المطلقة على المجتمع ، بعد أن قبضت على مقاليد الحكومات . نحن لا نظلم البورجوازية إذا قلنا إنها رمت الى تضخيم ثروتها بقطع النظر عن سعادة المجتمع . فهذا نظام إنتاجها واضح صريح في إهماله سعادة المجتمع إهمالا تاماً ، وسعيه وراء التوسع والربح . وإذا كنا في شك من هذه الحقيقة ، فما علينا الا أن نلقي نظرة على ميزات نظام الانتاج الرأسمالي :

٤ ـ نظام الانتاج الراسمالي نظام طلب الربح بقطع النظر عن سعادة المجتمع

في نظام الانتاج الرأسمالي:

* جميع ادوات الانتاج ووسائله هي ملك خاص لطائفة من ارستقراطية المال مؤلفين في شركات وبنوك ·

* جميع الانتاج الصناعي هو احتكار — أو يتجه نحو أن يكون احتكاراً — في أيدي الارستقراطية المالية التي تقبض بأيديها على أدوات الانتاج ووسائله·

* الربح الخاص هو الدافع الوحيد الى الانتاج ·

* العمال الذين يقع على عاتقهم عمل الانتاج الشاق لا يساهمون في شيء البتة من الارباح، ولا إدارة المعمل، ولا تقرير اجورهم، ولا ساعات عملهم؛ وليس ما يحميهم ضد البطالة والمرض والشيخوخة، وتشغيل الصبية القصر والنسوة الحاملات أو المرضعات أشغالا مرهقة، وضد الحوادث الطارئة عليهم أثناء قيامهم بوظائفهم ·

* الهيئة الاجتماعية، التي تستهلك الانتاج، لا تساهم أبداً في تقرير نوع الانتاج الذي تريد استهلاكه، ولا في كميته، ولا في تسعيره، ولا في مقدار الربح المجني من ورائه؛ والانتاج، إذا كان يدر الارباح، يجري بقطع النظر عن كونه نافعاً للهيئة الاجتماعية أو مضراً ·

... وهكذا نستطيع أن نرى بأم اعيننا كيف أن البورجوازية تهمل سعادة المجتمع إهمالا تاماً، ولا تمكن الانسان من استثمار موارد الطبيعة فقط بصورة لم يسبق لها مثيل، بل هي تمكن نفسها من استثمار الانسان ذاته أيضاً بصورة لم يسبق لها مثيل: البورجوازية قضت على مستثمري القرون الوسطى لتقوم هي مستثمرة عوضاً عنهم ·

٥ - البروليتاريا الصناعية الحديثة ودورها في التاريخ

ومنذ الساعات الاولى التي دارت فيها دواليب الصناعة الضخمة، ظهر المجتمع منشقاً بنوع خاص الى طبقتين على قطبين متعاكسين من المجتمع : طبقة البورجوازية نفسها صاحبة المصانع ، وطبقة العمال او البروليتاريا - الاولى قليلة العدد نسبياً ، وعددها يتضاءل يوماً عن يوم بسبب ابتلاع كبيرها لصغيرها ؛ والثانية كثيفة جرارة تزداد وتزداد . وتحققت في هذا الوقت حكمة التاريخ بأسطع شكل : ان الظالم المستثمر الواحد يخلق بيده الوف الحفارين لقبره .

البروليتاريا الصناعية ، تلك الطبقة من المجتمع الحديث التي لا تملك بجماهيرها الجرارة وسيلة للرزق إلا ما لديها من قوى عمل يدوية أو دماغية — قوى تعرضها في السوق كأي بضاعة اخرى ليشتريها أرباب الصناعة ويستخدموها في مشاريعهم ، غير مراعين في مشتراها ولا في مشاريعهم إلا ما تدره على جيوبهم من الارباح — هذه هي الطبقة التي تمسك بيدها الان السلك التقدمي من التاريخ ، وتصبح طليعة المجتمع التحررية وقائدة نضاله ضد البورجوازية وضد البقايا الباقية من الانظمة التي بنت البورجوازية نظامها على أنقاضها . البروليتاريا هي التي تنهض ، في هذه المرحلة من التاريخ ، مدافعة عن نفسها ، وعن كل من ظلمتهم البورجوازية وسخرتهم لأطماعها ؛ وذلك في سبيل النهوض بالمجتمع من شكله الحاضر — شكل استثمار الانسان للانسان — إلى شكل أرقى لا استثمار فيه ، هو الشكل الاشتراكي .

٦ - البروليتاريا في نضالها لنصرة الشعوب المستعمرة -

وحاملة لواء اعظم ديموقراطية

البروليتاريا مدافعة عن نفسها وعن كل من ظلمتهم البورجوازية ! ترى أظلمت البورجوازية غير البروليتاريا ؟ أجل ! وانه لسؤال يستدعي الوقوف عنده · ويحسن بنا لتسهيل غرضنا أن ندور حول نظام الانتاج الرأسمالي فنرى ميزاته من زاوية اخرى غير الزاوية التي رأيناها منها قبل قليل ·

في نظام الانتاج الرأسمالي :

* إنتاج ضخم صادر عن التقدم الآلي العظيم ·

* انتاج لا لسد حاجات المحتاجين بل للبيع في السوق ، لمن معه المال للشراء ·

* الحاجة إلى أسواق للتصريف ، إلى وقود ومواد خام لمتابعة الانتاج ، والى مناطق لتشغيل الرساميل المتكدسة - مما ينطوي جميعه تحت لفظة : استعمار ·

* صعوبة الحصول على الاسواق والوقود والمواد الخام والمناطق لتشغيل الرساميل كلما تضخمت مقادير الانتاج ، وقلت مكنة الشراء عند المستهلكين بسبب شدة استثمارهم ، وانتشار البطالة ، ونهضت دول جديدة في ميدان الصناعة وتقدمت للمزاحمة ·

* مزاحمة شديدة بين الدول على الاستعمار : ضم الاراضي ، اكتساب مناطق النفوذ ، وعلى المضاربة في التجارة وتسييج الاسواق بالتعريفات الجمركية العالية ·

*سلسلة دورية من الحروب الاستعمارية لاقتسام العالم وإعادة اقتسامه.

... يتجلى لنا من هذا أن البورجوازية لا تظلم البروليتاريا وحدها وتسخرها لأطماعها بل هي تمد ظلها، بطريق الفتح المسلح والتجاري الصناعي، الى مقدار ما يمكنها من المستعمرات ومناطق النفوذ والانتدابات وترهق شعوبها وتستثمرهم. البورجوازية تستعير عبارة (مترنيخ) عن ايطاليا: «إنها اصطلاح جغرافي فقط»، وتصف بمثلها جميع أوطان الامم الضعيفة.

فالبروليتاريا حين تناضل ضد البورجوازية لا تدافع عن نفسها فحسب، بل هي تدافع حتماً عن الشعوب المستعمرة والضعيفة أيضاً. هي حتماً حليفة هذه الشعوب ونصيرة قضيتها التحريرية تعمل لانصافها مع عملها لانصاف نفسها جنباً الى جنب.

مر لنا القول ان الديموقراطية البورجوازية ناقصة، ينقصها تأمين الجانب الاقتصادي من حقوق الانسان، ينقصها إنصاف البروليتاريا. ونضيف هنا: ان الديموقراطية البورجوازية ينقصها إنصاف الشعوب المستعمَرة والضعيفة واحترام حقوقهم. وهذان النقصان مما ما تعمل البروليتاريا على سده حين تجتهد لاستبدال الديموقراطية البورجوازية بالديموقراطية البروليتارية: أي الديموقراطية التي تتناول الجماهير العميقة العريضة ولا تنحصر في طائفة من ارستوقراطية المال، والديموقراطية التي تتناول الشعوب المستعمرة والضعيفة ولا تنحصر في بضع دول مدججة بالسلاح، ان عاملت بعضها على قدم المساواة فخوفاً من بعضها فقط، وهي تعتبر ما سواها من قوميات العالم في الشرق نهباً مقسماً بينها.

البروليتاريا، الحاملة لواء النضال في سبيل الديموقرطية البروليتارية، هي الجيش التقدمي الذي سعى ويسعى ليس فقط لحفظ ارث الحقوق الانسانية

التي أثمرتها شجرة الديموقراطية البورجوازية، بل أيضاً لابلاغ هذه الحقوق أوسع مداها في المجتمع الاشتراكي المقبل وحول جيش البروليتاريا التقدمي يلتف جميع التقدميين في الدنيا والمظلومين ، بما فيهم الشعوب المستعمَرة والضعيفة .

سعت البروليتاريا لتوسيع الديموقراطية البورجوازية منذ ما اختلج ضميرها بالشعور الطبقي وبدأت تعي أهمية الرسالة التاريخية الملقاة على عاتقها أي : بعد ولادتها في المجتمع الصناعي الحديث بزمن يسير .

كانت الديموقراطية البورجوازية في أول أمرها تأبى على البروليتاريا حق التنظيم للدفاع عن نفسها ضد جشع البورجوازية . (وقد رأينا من بعض التصريحات التي سقناها في مكانها كيف أن البورجوازية طمعت في منع البروليتاريا من حق الانتخاب) ففي انكلترا ـ مثلاً ـ كانت البروليتاريا ، وقد انسلخت عن أراضيها في الارياف ، تتكدس في مدن الصناعة الجديدة تكدساً : ليس من يهتم بها . لا تدابير صحية . أقذار . أمراض . جهل . الصناعة تكبر حولها ، تصير جبارة ، وأرباب المصانع تتورم جيوبهم ، يمدون حكوماتهم بالاموال لحشد الجيوش وفتح شعوب الارض وثرواتها أمامهم . يحرصون على إبقاء الاجور عند أدنى حد تبقى معه الروح عالقة بالجسد . يجعلون ساعات العمل أقصى ما يستطاع من الطول . يستخدمون الصبية القصر . يستخدمون النسوة ولا اعتبار عندهم للامومة والاطفال . اذا مرض العامل أو شاخ او طرأ عليه طارىء أثناء عمله فلا نوع من الضمان له ، وأول ما يحس أرباب الصناعة بنقص في أرباحهم يصرفون العامل ، وهو حر أن يصارع وحش البطالة لنفسه . أما التنظيم من أجل دفع غائلة هذا الاجحاف فقد كان ـ جريمة بالمعنى الحرفي

للمكلمة - في أعين أرباب المصانع . وهذه « قوانين منع التجمع »[١] في انكلترا سنة ١٧٩٩ ، شاهدة على ما نقول . هي قوانين تنص صراحة على منع العمال من التجمع في نقابات للدفاع عن مصالحهم . ازاء هذا الاهتضام والظلم اضطرت البروليتاريا ان تلجأ الى التنظيم السري . والتاريخ يروي لنا فيما يروي من هذا القبيل : ان سبعة عمال انكليز حكم عليهم ، سنة ١٨٣٤ ، بالنفي سبعة أعوام باعتبار انهم « متآمرون (!) » « مطبوعون على الشر (!) » لانهم ألفوا منظمة سرية - أو شبه منظمة - ليحصلوا على شلن واحد زيادة في الاجور . ولم ينفعهم تصريحهم : « نحن إنما اجتمعنا لنحمي أنفسنا ونساءنا وأطفالنا من الانحطاط التام والهلاك جوعاً » .

ولسنا بصدد الفوضى في تفصيل أنباء المذابح الدموية التي جازتها البروليتاريا في سبيل توسيع قاعدة الديموقراطية البورجوازية حتى نالت حق التنظيم وحقوقاً اخرى للدفاع عن مصالحها مما يؤلف سفر انتصارات مجيدة لها وللديموقراطية الصحيحة كتب فيه فصل (كومين باريس) ، سنة ١٨٧١ ، بسطور من اللهب . غير انه يكفي ان نعلم ان نضال البروليتاريا استمر طوال القرن التاسع عشر تقريباً (ولا يزال مستمراً) ، ومنه انبثقت النقابات الحديثة ، وهي في جوهرها : منظمات تكتيل للعمال ، وحماية لهم ، ومطالبة بمصالحهم عن طريق الاضرابات والمفاوضات وسائر اشكال النضال . ونشأت الصحف العمالية والاحزاب السياسية العمالية أيضاً لتمثيلهم في المجالس النيابية والوزارات ؛ ونشأت القوانين لضمانة العمال وحماية بعض مصالحهم مما هو معروف بالتشريع العمالي ؛ ونشأت

(١) Combination Laws

المخازن والمشاريع التعاونية حماية لهم من المضاربات وغلاء الاسعار الاحتكارية .

والآن ، حان أن نترك افق التاريخ الماضي ودنيا البحث النظري لنشاهد الديموقراطية البروليتارية محققة في عالم الواقع ، ونرى هل وسعت قاعدة الديموقراطية فعلا ، وسدت النقصين اللذين لمسناهما في الديموقراطية البورجوازية .

٧ - الديموقراطية البروليتارية في سدس الكرة الارضية

ضمانها لاوسع حقوق عرفها الانسان

الديموقراطية البروليتارية محققة الان في سدس الكرة الارضية ، في بلاد الاتحاد السوفياتي حيث ترتفع شمس الاشتراكية أعلى فأعلى وتنير . وهذا الدستور السوفياتي الجديد بين يدينا فلنأخذ منه حقوق الانسان وما نحتاجه لغرضنا :

الفصل الاول - المادة ١٠ :— حق المواطنين في الملكية الخاصة للارباح والمتوفيرات الناتجة من عملهم ، ولبيوت السكن وتوابعها [١] ، وللبضائع والادوات المنزلية ، ولأمتعة الاستعمال والراحة الشخصية حق يحميه القانون . وكذلك حق وراثة هذه الملكية الخاصة [٢].

(١) كالحديقة الصغيرة حول البيت مثلاً بزروعاتها ودواجنها .

(٢) من هنا يظهر تماماً كذب وسخف الذين يحاولون تشويه الاشتراكية بزعمهم مثلاً : انها تجعل حذاء واحداً أو قميصاً واحداً مشتركا بين عشرة أشخاص . والحقيقة أن الاشتراكية تريد أن تجعل عشرة أحذية أو قمصان لكل شخص واحد — ان لم يكن أكثر . الاشتراكية تفرق جيداً بين ملكية ضخمة في المصانع والاراضي تخول صاحبها اضطهاد العمال والفلاحين والاستبداد الاحتكاري بالشعب ، وبين ملكية صغيرة تكاد -

الفصل الثاني ـ المادة ١٧ :ـــ كل جمهورية من الجمهوريات التي يتألف منها « اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية » تحتفظ بحق الانسحاب منه بحرية ٠

الفصل العاشر ـ المادة ١١٨ :ـــ مواطنو « اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية » لهم الحق في العمل ٠ وذلك يعني الحق في شغل مكفول مع أخذ جزاء جهودهم حسب مقدارها وقيمتها ٠

الحق في العمل مضمون بتنظيم الاقتصاد الوطني تنظيماً اشتراكياً ، وبنمو القوى المنتجة في المجتمع السوفياتي نمواً مطرداً ، وبانعدام إمكان حصول الأزمات الاقتصادية ، وبتلاشي البطالة ٠

المادة ١١٩ :ـــ مواطنو « اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية » لهم الحق في الراحة وتنزيه النفس ٠

الحق في الراحة مضمون بانقاص ساعات العمل اليومي إلى سبع فيما يخص الاكثرية الساحقة من العمال ، وبمنح فرص سنوية للعمال والمستخدمين مع دفع اجورهم ، وبانشاء شبكة عظيمة من المصحات وملاجئ الراحة والاندية توضع تحت تصرف الشعب العامل ٠

المادة ١٢٠ :ـــ مواطنو « اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية »

ـــ لا تفي بحاجات صاحبها ٠ دعك من تسليطه على استثمار غيره ٠ هناك بون شاسع بين الاقطاعي الذي يشتغل لحسابه مئات الفلاحين في أرضه المترامية ، وهو غارق في ملاهي المدن لا يرى فلاحوه وجهه الا عندما يطلع عليهم ليستولي على أطيب قسم من الموسم ، وبين الفلاح الذي يملك قطعة أرض محدودة يشتغلها هو وامرأته وأولاده ، يساعده ثوره وحماره ويتآزر مع جاره الفلاح الآخر ٠ الاشتراكية تريد ان تقضي على ملكية الاقطاعي قضاء مبرماً ٠ هذا ما لا شك فيه ٠ ولكنها تعمل على تعزيز ملكية الفلاح الصغير الفقير وتكثير انتاجه بزيادة أرضه ، وبمساعدته على تجويد الزراعة ، وبتنظيم تعاونه مع غيره ٠

لهم الحق في الضمان المادي أثناء شيخوختهم ، وفي حالات المرض أو فقدان القدرة على الشغل ·

هذا الحق مكفول للعمال والمستخدمين بنمو الضمان الاجتماعي على حساب الدولة نمواً واسعاً ، وباسعاف طبي مجاني للعاملين ، وبشبكة من مراكز المعالجة والاستشفاء توضع تحت تصرفهم ·

المادة ١٢١ :– مواطنو « اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية » لهم الحق في التعلّم ·

هذا الحق مضمون بالتعليم الابتدائي الاجباري العام ، وبالتدريس المجاني فيما يشمل التدريس العالي أيضاً ، وباعانات تدفعها الدولة للاغلبية الساحقة من طلبة المعاهد العالية ، وبالتعليم المعطى في المدرسة بلغة الطالب الاصلية ، وبتنظيم التدريس المجاني - سواء ما كان منه صناعياً أو فنياً أو زراعياً - للعاملين في المصانع والمزارع الحكومية والمزارع التعاونية ومحطات آلات الزراعة ·

المادة ١٢٢ :– للمرأة في « اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية » حقوق مساوية لحقوق الرجل ، في جميع ميادين الحياة سواء ما كان منها اقتصادياً أو حكومياً أو ثقافياً أو اجتماعياً أو سياسياً ·

إن إمكان تأمين كل هذه الحقوق للنساء مكفول بمنحهن حقوقاً مساوية لحقوق الرجل فيما يتعلق بالشغل والاجور والراحة والضمان الاجتماعي والتعليم ، ومكفول أيضاً بحماية الدولة لمصالح الام والطفل ، وباعطاء المرأة فرصاً ابان الحمل مع دفع اجرتها ، وبشبكة واسعة من دور التوليد وبيوت الحضانة وبساتين الاطفال ·

المادة ١٢٣ :– مساواة مواطني « اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية » في الحقوق بدون أي تفريق بين القومية والجنس في ميادين الحياة

الاقتصادية والحكومية والثقافية والاجتماعية والسياسية. هو قانون غير قابل التبديل. وكل تقييد مباشر أو غير مباشر لهذه الحقوق، او بالعكس، كل إقامة امتيازات مباشرة أو غير مباشرة للمواطنين على اساس ما ينتمون اليه من جنسية او قومية، وكذلك كل دعاية في سبيل الاستئثار أو البغض أو الاحتقار الجنسي والقومي يعاقب عليه القانون.

المادة ١٢٤ :— لاجل ضمان حرية الضمير للمواطنين فالكنيسة في « اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية » مفصولة عن الدولة، والمدرسة مفصولة عن الكنيسة، وحرية ممارسة العبادات الدينية وحرية الدعاية ضد الدين مباحة للمواطنين جميعاً.

المادة ١٢٥ :— وفقاً لمصالح العاملين وفي سبيل توطيد النظام الاشتراكي يؤمن القانون لمواطني « اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية :

(ا) حرية الكلام

(ب) حرية الطباعة والنشر

(ج) حرية الاجتماع

(د) حرية السير بمواكب ومظاهرات في الشوارع.

هذه الحقوق مضمونة للمواطنين ولمنظماتهم بوضع المطابع ومخازن الورق والبنايات العامة والشوارع ووسائط المخابرة البريدية والبرقية وامور مادية اخرى ضرورية لتنفيذ هذه الحقوق في متناول العاملين.

المادة ١٢٦ :— وفقاً لمصالح العاملين وفي سبيل تشجيع الجماهير الشعبية على التعبير عن ارادتها بشكل منظم، ومن اجل تقوية نشاطها السياسي يؤمن القانون لمواطني «اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية»

حق الاشتراك في تشكيلات اجتماعية : نقابات مهنية واتحادات تعاونية، ومنظمات شبيبة وفرق رياضية ودفاعية واندية ثقافية وفنية وعلمية - وفوق ذلك فان المواطنين من طبقة العمال وسائر هيئات (الشغيلين) الذين هم أشد نشاطاً ووعياً يندمجون في «حزب الاتحاد الشيوعي الشامل» (البلشفي) الذي هو طليعة الشعب العامل في جهادهم لتوطيد وتنمية النظام الاشتراكي، والذي يمثل النواة القائدة لكل منظمات العاملين سواء ما كان منها مختصاً بالمجتمع أو بالدولة .

المادة ١٢٧ :- حرمة الشخص مكفولة لمواطني «اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية» فلا يمكن ان يلقى القبض على احد إلا بقرار من المحكمة او بتصديق النائب العام .

المادة ١٢٨ :- صيانة حرمة المسكن وسرية المراسلات حق يحميه القانون لمواطني «اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية» .

المادة ١٢٩ :- «اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية» يمنح حق الالتجاء اليه للمواطنين الاجانب الذين وقع عليهم الاضطهاد بسبب دفاعهم عن مصالح العاملين، أو بسبب أعمالهم العلمية، أو بسبب جهادهم من أجل التحرر القومي .

فنحن نلاحظ كيف أن الديموقراطية البروليتارية وكيف أن الاشتراكية لا تجاهر بالحقوق السياسية والمدنية التي تجاهر بها الديموقراطية البورجوازية وتقف عند حد المجاهرة، أي تتركها كلمات معسولة على قراطيس صقيلة، بل هي الى جانب كل حق تضمن أيضاً الشروط المادية الضرورية لتنفيذه، وتضمن تأهيل الانسان لممارسة هذا الحق والاستفادة منه . الديموقراطية البورجوازية مثلاً - مثلاً واحداً فقط - تجاهر بحرية الطباعة والنشر . ولكن الانسان الامي

الذي يجهل حتى وجود هذا الحق له ، الانسان المعدم الكادح كالدابة للقمته ، كيف يستطيع ممارسة هذا الحق ؟ كيف يكتب ؟ كيف يطبع ؟ من اين له المطابع والورق ؟ لقاء هذا ، ماذا تصنع الديموقراطية البروليتارية ؟ بعد أن تكون أهلت الانسان ثقافياً لممارسة حق الطباعة والنشر ، تجعل في متناوله المستلزمات المادية لممارسة هذا الحق . باختصار انها تعنى بتأمين الجانب الاقتصادي منه لما نجد لهذا الجانب من الاهمية الحاسمة .

وكلمات ستالين في هذا الفرق بين الديموقراطية البورجوازية والديموقراطية البروليتارية يمكن أن تعد فصل الخطاب في الموضوع . قال في خطابه عن الدستور السوفياتي الجديد :

« ان الدساتير البورجوازية تكتفي عادة بتعيين الحقوق الرسمية للمواطنين دون أن تكترث بالشروط الضرورية لتنفيذ هذه الحقوق ، دون أن تهتم بتسهيل إمكانية تنفيذها ، وبضمانات وسائل التنفيذ . تلك الدساتير تتحدث عن مساواة المواطنين ، ولكنها تنسى انه لا يمكن ان تكون مساواة حق بين العامل وصاحب العمل ، بين الفلاح والملاك الكبير المتمول ما دام صاحب العمل والملاك الكبير يتمتعان بالثروة والنفوذ السياسي في المجتمع ، والعامل والفلاح محرومان كلا الثروة والنفوذ ، وما دام صاحب العمل والملاك الكبير مستثمرين العامل والفلاح تحت وطأة الاستثمار . الدساتير البورجوازية تتحدث أيضاً عن حرية الكلام والاجتماع والطباعة ، غير انها تنسى أن كل هذه الحريات يمكن أن تصبح كلمات فارغة فيما يتعلق بالطبقة العاملة اذا كانت هذه الطبقة محرومة إمكانية التصرف بمواضع مخصصة لاجتماعاتها ، وبمطابع جيدة ، وبمقدار كاف من الورق » .

وكذلك نرى ان الديموقراطية البروليتارية تضمن حق الانسان كعضو من قومية يريد حرية قوميته ، لان استعبادها هو استعباد له. والديموقراطية البورجوازية قد نادت مراراً ، خصوصاً في أدوار أزماتها، بوجوب تحرر كل قومية. نقرأ في دستور فرنسا ، سنة ١٧٩١ : «ان الامة الفرنسية لا تشهر حرباً ابتغاء الفتوح ولا توجه قواتها ضد حرية شعب من الشعوب» ثم ماذا نجد؟ نجد فرنسا تبني لها امبراطورية بقوة الفتح المسلح وتطلق موجات استعمارية تحاول بها إغراق القوميات العديدة ! نقرأ أيضاً في القراطيس الزاهية الألوان التي كانت تلقيها طيارات الحلفاء على العرب ابان الحرب العظمى : «ان الهدف الذي ترمي اليه بريطانيا العظمى وفرنسا على مد الحرب التي أثارها الطموح الالماني الى الشرق إنما هو التحرير الكامل والختامي للشعوب التي طال عليها الزمن تحت عسف الترك ، وإقامة الحكومات والادارات الوطنية المستمدة سلطتها من مصالح السكان واختيارهم الحر». ثم ماذا نجد؟ نجد الحلفاء يجعلون العرب صحناً لذيذاً بينهم في وليمة فرساي ! نقرأ أيضاً في المبادئ الاربعة عشر التي أذاعها الرئيس ولسون على العالم لتكون حجر الزاوية في معاهدات السلم :

*الشعوب والبلدان يجب أن لا تكون موضوع مساومة بين دولة ودولة كما لو كانت حجارة شطرنج في لعبة.

*كل اتفاق مختص بالاراضي يجب ان يكون في صالح سكان تلك الاراضي ، وليس قسما من تعديل أو تراض يدور حول مطاليب دول متنافسة.

*كل العناصر القومية الواضحة ميزاتها يجب أن تعطى أقصى ترضية

يمكن اعطاؤها لها بدون دس عناصر جديدة بينها من الشقاق والبغضاء أو الابقاء على عناصر قديمة من هذا النوع .

ثم ماذا الخبر ؟ تجد البورجوازيات المنتصرة اثر الحرب العظمى لا تأخذ بعين الاعتبار إلا مطامعها الاستعمارية الخاصة ، مهملة حقوق القوميات طالبة التحرر إهمالاً تاماً ، وساعية لتمزيق كيانها .

ان تمتع كل قومية في العالم بحريتها ، والعمل التعاوني مع قوميات العالم الاخرى على قدم المساواة ، لم تستطع البورجوازية وديموقراطيتها أن تحققه أو تدنو منه قلامة ظفر ، وظل حلماً بعيداً في أدمغة اشخاص انسانيين (ككوندرسيه) يستفظعون الفتوح ويصيحون بلسانه : « لا بد أن يدرك الشعوب انهم لا يستطيعون أن يكونوا فاتحين بدون أن يخسروا حريتهم الخاصة ! » .

فلما جاءت الديموقراطية البروليتارية ، لما احتلت الاشتراكية سدس الكرة الارضية بدلاً من عالم الفكر ، جعلت هذا الحلم — حلم حرية القوميات وعملها التعاوني على أساس المساواة — شيئاً واقعاً . ومنحت كل قومية من القوميات التي دخلت في نظامها حق الانسحاب والاستقلال ، وطلبت منذ أيام ولادتها الاولى في لظى جحيم الحرب العظمى ، من الدول المتطاحنة : « ان تشرع حالاً في المفاوضات من أجل سلم عادل ديموقراطي » أي : « سلم بدون إلحاقات ، وذلك يعني بدون استيلاء على أراض أجنبية ، وبدون ضم إجباري لقوميات اخرى » .

وأضافت ، بخصوص الحرب الاستعمارية التي كانت تستعر نيرانها

آنذاك : « ان متابعة الحرب لتمكين الامم القوية الغنية ان تقسم بينها القوميات الضعيفة المكتسحة لشيء تعتبره الحكومة السوفياتية أفظع جريمة ممكنة ضد الانسانية . والحكومة السوفياتية تعلن بجد تصميمها على توقيع معاهدة سلم تضع نهاية لهذه الحرب وفقاً للشروط المتلوة سابقاً ، معاهدة تتصف بصورة متعادلة جميع القوميات من غير استثناء ! »[1].

ولم تقف الحكومة السوفياتية عند حد الكلام بل منحت حق تقرير المصير لكل قومية من القوميات الضعيفة التي كانت قد أوثقتها الامبراطورية القيصرية بسلاسل استعمارية حديدية . وما علينا إلا أن نقرأ « إعلان حقوق شعوب روسيا » لنكون على يقين مما نزعم . وهذا هو نص الاعلان الرسمي :[2]

* « ان مؤتمر السوفيات الاول ، في حزيران من هذه السنة ، قد أعلن حق شعوب روسيا في تقرير مصيرها

* « ومؤتمر السوفيات الثاني ، في تشرين الثاني المنصرم ، قد وافق أيضاً بصورة اقوى واوضح على هذا الحق الذي لا يمكن نزعه من شعوب روسيا

* « فتنفيذاً لارادة هذين المؤتمرين ان « مجلس مفوضي الشعب » قد رسم المبادئ الآتية أساساً لخطته في مسألة القوميات :

(١) مقتطفات من وثيقة رسمية دعتها الحكومة السوفياتية : « نداء الى شعوب وحكومات جميع الامم المتحاربة » راجع نصها الكامل في كتاب : « عشرة أيام هزت العالم » لجون ريد صفحة ١٠٥

(٢) كتاب جون ريد أيضاً صفحة ٢١٩

(١) مساواة شعوب روسيا وتمتع كل منها بسيادة نفسه .
(٢) حق شعوب روسيا في تقرير مصيرها تقريراً حراً حتى الى درجة الانفصال وتشكيل دولة مستقلة .
(٣) الغاء كل الامتيازات والتحريمات الناشئة عن سبب وطني ، أو وطني ديني .
(٤) نمو الاقليات القومية والفئات الجنسية القاطنة أراضي روسيا نمواً حراً .

وستهيأ المراسيم سريعاً عند إنشاء «لجنة معالجة قضية القوميات» .

باسم الجمهورية الروسية : مفوض الشعب للقوميات

يوغاشفيلي ستالين

رئيس مجلس مفوضي الشعب

ف . اليانوف (لنين)

ونظرة عجلى الى المعاهدات التي عقدها الاتحاد السوفياتي مع بعض الشعوب المعرضة أفتك المطامع الاستعمارية تكفي لبرهان حب البروليتاريا وتنشيطها المحسوس لقضايا تحرر القوميات الضعيفة واستقلالها . نقرأ في المعاهدة بين الاتحاد السوفياتي وبلاد فارس ، سنة ١٩٢١ ، ما يلي :

« رغبة في رؤية الشعب الفارسي مستقلاً مزدهراً ومتمتعاً بحق التصرف الحر بممتلكاته ، ان حكومة الجمهورية الروسية الاشتراكية الاتحادية السوفياتية تعلن جميع المواثيق والمعاهدات والتشرطات والاتفاقات التي وقعتها الحكومة القيصرية مع بلاد فارس ، والقصد من ورائها النيل من حقوق الشعب الفارسي ، ملغاة وغير معمول بها

وعديمة الاثر»[1] . وملائمة لروح هذه المعاهدة ، أسقطت الحكومة السوفياتية ديون الحكومة القيصرية على الشعب الفارسي ، وتنازلت له بدون أي تعويض عن الطرقات والسكك الحديدية وخطوط التلغراف وامتيازات الموانئ وسائر المشاريع القيصرية الاستعمارية في شمالي العجم ، وحرمت التبشير الديني الارثوذكسي في بلاد فارس ، وسلمت الى الشعب الفارسي جميع منشآت الكنيسة الروسية في أراضيه .

وأخيراً - هذا هو الدستور السوفياتي الجديد ، تعبيراً عما تكنه الديموقراطية البروليتارية من العطف الشديد على القوميات المستعمرة والضعيفة ، تراه يمنح حق الالتجاء الى بلاد السوفيات لكل من يناله الاضطهاد والتشريد بسبب جهاده القومي .

ومما تجب ملاحظته في زيادات الديموقراطية البروليتارية على الديموقراطية البورجوازية مساواة المرأة بالرجل في الحقوق مساواة تامة ، وفسح المجال لها لأن تمشي معه كتفاً الى كتف في جميع ميادين الحياة . «كل طبّاخة يجب أن تعرف كيف تدير الدولة» . يقول لينين . وصح ما قاله المفكر الروسي (اناتول لوناتشارسكي) : «إن المرأة تظفر بالعدالة لاول مرة عندما تبنى الدولة الاشتراكية» .

بعد هذا كله - تأمل أن يكون اتضح لنا تفوق الديموقراطية البروليتارية على الديموقراطية البورجوازية ، وانها مرحلة أعلى في التطور التاريخي تعمل على تثبيت حقوق اشتراكية للانسان : سياسية ومدنية وقومية واقتصادية ، هي أوسع ما اتيح له ان يعرف في جميع تاريخه الطويل المعذب .

---

(١) راجع كتاب «الشرق والغرب» لهانس كون صفحة ١٨

الطريقان امام حقوق الانسان

الحياة في طريق الاشتراكية ....

الموت في طريق الفاشيستية ....

١ — حقوق الانسان في خطر

لقد لمسنا كيف أن حقوق الانسان اذا سارت في طريق الاشتراكية فانها ترقى وتتسع وتبلغ أوسع مداها ، فلسنا بحاجة الى طرق الموضوع من جديد .

ولا شك ان القارئ قد غمرته موجات الغبطة ، حين لاحت له هذه الصورة البهيجة من حقوق الانسان في ظلال الاشتراكية ومن حقه ان يغتبط . ولكن على القارئ ان يعلم أن حقوق الانسان الاشتراكية لن تتأتى لنا وترسخ دعائمها بدون الجهاد المر في سبيلها . على القارئ أن يعلم ان حقوق الانسان ، حتى في شكلها الديموقراطي البورجوازي ، هي الان عرضة لخطر الموت ، فكيف بها في شكلها الاشتراكي ؟ على القارئ أن يعلم أننا الان في منقلب من التاريخ ، وان الساعة تحتم علينا جهادين من أجل حقوق الانسان :

جهاداً لصيانة حقوق الديموقراطية البورجوازية ،

وجهاداً آخر لحمل هذه الحقوق الى اوسع مداها الاشتراكي .

وكلا الجهادين جزء متمم واحدهما للآخر .

صيانة الحقوق الديموقراطية البورجوازية ممن ؟ من البورجوازية نفسها ، وممن انضوى تحت لوائها في المعسكر الرجعي . هذا يلوح غريباً . فلنفسّر ...

٢ — البورجوازية تزيد تعصب ديكتاتوريتها العلنية

عرفنا من بعض تصريحات سقناها في الفصل السابق ان البورجوازية، وهي لا تزال في دور ثوراتها واستيلائها على مقاليد السلطة كانت تفكر جدياً بقصر حق الانتخاب عليها مثلاً ـ مما يشير الى انها في أعماق نفسها كانت تنظر نظرة ارتياب وقلق الى هذه الحقوق الديموقراطية التي تجاهر بها ، ويخفق قلبها خفوق الخوف على ما تكدس بايديها من ثروة المجتمع . وهذا عين ما أبداه آباء البورجوازية الانكليزية عقب انتصارهم في الحرب الاهلية زمن (كروموبل) إذ قالوا معللين سبب تمنعهم من منح حق الانتخاب العام :

« اذا جعلنا السيد والخادم متساويين في حق الانتخاب فيتضح ان هؤلاء الذين لا اهتمام عندهم بالمملكة يجعلون وكدهم انتخاب من لا اهتمام عندهم ايضاً . وعندئذ يجوز أن يحدث ان الاكثرية ـ عن طريق القانون لا الفتنة ـ تهدم الملكيات الخاصة . يمكنها أن تسن تشريعاً لذلك ، وعندئذ يتوجب ان تحصل مساواة في البضائع والعقارات ! » .

وهذا ما لا تخشى البورجوازية شيئاً كما تخشاه .

إلا ان البورجوازية كانت مضطرة الى رفع علم الحرية والاخاء والمساواة ، حتى تجر الى جانبها ، في معاركها مع الأقطاعية والاوتوقراطية، سواد جماهير الشعب . والشعب انضم الى البورجوازية وهو يعتقد انه

يحارب من اجل الحرية و الديموقراطية المطلقة للجميع ، وان كانت الحرية التي شاءتها البورجوازية هي حرية التجارة والانتاج والاستثمار والاثراء الى أبعد حد ، بدون أثقال باهظة من ضرائب وتكاليف يفرضها امراء وأديرة الاقطاع وملوك الاوتوقراطية ، فيعرقلون بذلك مشاريعها ويقيدون نموها .

فلما انتصرت البورجوازية على أعدائها بمؤازرة جماهير الشعب لم تستطع فجأة عقب انتصارها أن تدوس علم الحرية والاخاء والمساواة وتنصب ديكتاتوريتها علانية مفضوحة . بل وجدت أن لا بد لها من ان توافق في نظامها الديموقراطي البورجوازي على حريات وحقوق تتناول جماهير الشعب التي آزرتها في كسب معاركها بالامس .

طبعاً ان البورجوازية ، بديكتاتوريتها الاقتصادية على المجتمع ، قد تمكنت ان تقلل من قيمة هذه الحقوق والحريات الى مدى بعيد . فضلا عن ان جماهير الشعب لم تشرع حالا في استعمال هذه الحقوق والحريات بمقدار يؤذي البورجوازية كثيراً .

ولكن لما طلعت البروليتاريا الصناعية الحديثة — وليدة النظام البورجوازي — على مسرح التاريخ واحتلت مركزها الثوري على رأس الجماهير الشعبية ، وشرعت تستخدم الحقوق والحريات الديموقراطية التي تساهلت بها البورجوازية ضد البورجوازية نفسها ، وتكافح من اجل توسيع هذه الحقوق والحريات ، وتحرز الانتصارات الباهرة في كفاحها وتخفف من غلواء ارباب المصانع واسياد المال في تسيير كل شيء على هوى جيوبهم اخذ الارتياع القوي يستولي على البورجوازية من وخامة عواقب هذه الحقوق والحريات الديموقراطية إذا ظل أمرها يتفاقم .

فضلاً عن ان نظام الانتاج الراسمالي يحمل في رحمه أجنة لاتحصى من التناقضات والازمات . فكلما اسرعت البورجوازية في طريق تقدمها نضج جنين أزمة في نظام انتاجها الراسمالي ، واسقطها في شبكة من الارتباكات ، وأضعفها امام الهجمات التي تبيحها عليها الحقوق والحريات الديموقراطية .

فلنأخذ لنا مثلا واحداً فقط من حقوق الديموقراطية البورجوازية - حق الانتخاب .

ان البورجوازية ، وهي مفتوحة العيون على مصالحها الطبقية فتحاً كبيراً ، ترى البروليتاريا مع سائر جماهير الشعب الناقمة عليها ، تتمكن بواسطة هذا الحق - حق الانتخاب - من إرسال ممثلين لها إلى المجالس النيابية منتخبين من اعمق صفوفها ، لا من صفوف البورجوازية ؛ ممثلين هدفهم الدفاع عن مصالح منتخبيهم ضد اطماع البورجوازية ومشاركة البورجوازية في الحكم على الاقل - ان لم نقل انتزاعه الكلي منها . ثم ترى البورجوازية عدد هؤلاء الممثلين يزداد مرة عن مرة بفضل ازمات الانتاج الراسمالي وضغطه الثقيل على البروليتاريا وجماهير الشعب ، وبفضل يقظة البروليتاريا وجماهير الشعب وتقدم تنظيمها فتدرك البورجوازية سريعاً ان هذا الازدياد ، اذا استمر حتى يبلغ نتيجته المنطقية ، انتهى بالقضاء عليها ؛ أو هي تدرك حسب كلمات ماركس : « ان جميع الاسلحة التي صقلتها ضد الافكار الاقطاعية تنقلب عليها نفسها وان جميع وسائل التثقيف التي اخترعتها تتكاتف ضد افكارها نفسها ، وان جميع الآلهة التي خلقتها تدير لها الظهر » وتدرك ايضاً : « ان كل ما يسمونه حريات بورجوازية أو أدوات

رقي وتقدم تهاجم وتهدد سيادتها الطبقية »(١) فهل تبقى البورجوازية مكتوفة الايدي ؟ لا . انها تلعن حق الانتخاب وتتهكم على المجالس النيابية ، وتسن فأسها لابادتها من الوجود .

وهكذا نجد البورجوازية التي تكون قد اجتازت دور الراسمالية الطليقة المرتكزة على التنافس الحر ، واندفعت في طريق الرأسمالية الضخمة الاحتكارية ، يشتد تأففها يوماً عن يوم من ديموقراطيتها ولو لتها بذتها ، وتبيت لها المكائد وتشتهي لو تنشب فيها مخالبها وتدعك صكوك الحقوق والحريات الديموقراطية التي تبيحها ، وتلقيها في سلة زبالة التاريخ وتنصب دبكتاتوريتها علانية مفضوحة وحشية .

٣ — الفاشستية : قناعها المزركش ووجهها الحقيقي

ديكتاتورية البورجوازية العلنية المفضوحة الوحشية — بعد أن تكون قد بطشت بالحقوق والحريات الديموقراطية — هذه هي الفاشستية!

الفاشستية ، بكلمة مختصرة ، معناها الغاء الحقوق والحريات الديموقراطية ؛ معناها الغاء حقوق الانسان التي أحرزها خلال اجيال من الجهاد المجيد ضد المستبدين في جميع الالوان والاشكال التي ظهروا فيها ، ورده تحت ضغط القوة البربرية الى حال كحاله يوم كان بلا حقوق البتة(٢). ينبغي أن ندعم ما نقول بالبراهين :

(١) كارل ماركس: كتابه « الثامن عشر من شهر بريمر ولويس بونابرت » .

(٢) قد يقال : ان هذه وجهة نظر المتطرفين الى الفاشستية ، وجهة نظر الاشتراكيين والشيوعيين! ولكن امامنا مثلاً كتابات الكاثوليكي الاسباني الكبير ، اوسوريواي غالاردو ، مؤسس الحركة المسيحية الاجتماعية في اسبانيا تشهد لنا أن هذه وجهة نظر كل انساني مخلص الى الفاشستية ، بلا أدنى اعتبار للاحزاب . وغالاردو لا يمكن أن يتهم بالاشتراكية أو الشيوعية ، وهو الذي كان مرة وزير الاشغال العامة الاسبانية زمن الملكية . قال

طبعاً ان الفاشستية لا تنادي على نفسها بانها ديكتاتورية الراسمال الضخم الاحتكاري ٠ اننا نكون ساذجين سذاجة الصبية اذا انتظرنا منها ذاك ، بل هي بالعكس تحرص ، خصوصاً في بدء أمرها ، على أن تبرز بدهان يبرق بريقاً مغرياً خلابا في أعين الناس ٠ تستعمل الالفاظ التي تمثل اماني الامة والوطن ، تصيح باللهجة التي تعرف انها تفش غضب الجماهير ، وتقذف احيانا بشعارات ثورية مدهشة بلبلة لعقول الناس ، وتتفنن في القاء مسؤولية الشقاء الذي يقاسيه الشعب على غيرها ، وتستر فراغها بستار المظاهر الفخمة قصد التهويل الخ الخ٠ غير أنا إذا شحذنا سلاح الفهم فاننا نستطيع بسهولة أن نحك عنها دهانها ، ونلمس حقيقتها وراء بريقها الخارجي من تصرفاتها الواقعة٠

سنة ١٩١٩ خاضت الفاشستية الايطالية معمعة الانتخابات بهذا المنهاج الغريب على مثالها :

* ضريبة خارقة على الراسمال متزايدة ، يكون من ورائها المصادرة الجزئية للثروات٠
* وضع اليد على كل ملكية خاصة بالمؤسسات الدينية٠
* تأليف لجان فنية للصناعة والعمل والمواصلات ٠
* تشكيلات بروليتارية لادارة المصالح العامة ٠
* تنفيذ حقوق عمال السكك الحديدية « السكك الحديدية لعمالها » ـ

غالاردو في الخطاب الذي القاه في ١٠ تشرين الاول سنة ١٩٣٦ ، في المؤتمر الاوروبي للدفاع عن اسبانيا الجمهورية : « انا الكاثوليكي المدافع عن حرية الضمير ، ايجوز لي ان اكون بجانب مضطهدي الحرية ؟ (يعني عصاة فرنكو) انا ضمير مبدأ الحرية والمساهلة ، يجوز لي ان اضم نفسي مع الفاشستية ماحية جميع الحريات ؟ انا انسان الحقوق (يقصد المحامي) طول مدة حياتي ، ايجوز لي ان اضع نفسي في صفوف هؤلاء الناس الذين ينكرون الحقوق ، ويجعلون من القوة الها ؟ كلا ! ٠٠٠»

* مساهمة العمال في ادارة الصناعة .

وفي السنة ذاتها ١٩١٩ ، عززت الفاشستية الايطالية منهاجها السابق بما يلي :

* خلق جمعية وطنية ايطالية تكون عضواً من جمعية اممية لكل الشعوب .

* إطلاق حرية الفكر ، الضمير ، العقيدة الدينية ، الاجتماع ، الطباعة والنشر ، الدعاية ، العمل السياسي فردياً وجماعياً .

* خلق مؤسسة مالية وطنية :

* وضع اليد على المداخيل الناتجة عن مصادر غير مثمرة [1] .

* الاراضي الكبيرة للفلاحين .

ذلك في سنة ١٩١٩ . أما اليوم فالذي يريد ان يطبع هذين المنهاجين في ايطاليا الفاشستية يكلفه ذلك خمس سنوات من حياته في اعماق السجون !

ماذا حدث ؟ نستطيع أن ندرك ذلك من بعض المراسيم التي سارعت الحكومة الفاشستية الجديدة الى إصدارها . فإنها أصدرت في ١١ كانون الثاني ، سنة ١٩٢٣ ، مرسوماً يقضي بالغاء مرسوم (فيسوشي) الصادر قبلا في ٢ ايلول سنة ١٩١٩ ، والذي جعل بعض احتلالات قام بها الفلاحون للاراضي البور قانونية وقتياً . فلما صدر مرسوم الالغاء ، اضطر الفلاحون بموجبه ان يعيدوا الى الملاكين الكبار ، من غير أقل تعويض ، اراضي حرثوها وسقوها واحيوها بعرق جباههم ، بينما كان الملاكون الكبار قد تركوها مواتاً مهملة !

(١) أي غير زائدة في ثروة المجتمع كمداخيل صناعات الحرب أو مراسح دور القمار مثلا .

ونستطيع ايضاً أن ندرك الانقلاب الذي طرأ على الفاشستية من بعض تلك الاسئلة المرة الجارحة ، التي كان يقذفها في وجه الدوتشي موسوليني ، النائب الاشتراكي الايطالي (جياكومو ماتيوتي) الذي صرعته الفاشستية على اسلوبها الخاص في الاغتيال ، وكاد مصرعه يؤدي الى نسفها لو انتهز اعداؤها الفرصة .

كان (ماتيوتي) المتهكم الجسور يقف سائلا موسوليني عما حل بالمنهاج الفاشستي السابق . كان يرفع بيده «البوبولو ديتاليا» ، جريدة موسوليني الخاصة ، عدد ٢٨ ايلول سنة ١٩٢٠ مثلا ، ويقرأ منه كلاماً يحمل إمضاء الدوتشي الصريح : «ان ثورة ١٩٢٠ الايطالية (يقصد احتلال البروليتاريا للمصانع) إنما هي جانب من الثورة الفاشستية !» ثم يسائل ماتيوتي الدوتشي : «هل تنكر هذا الان ؟» وينهال عليه بسلسلة من الاسئلة غير هذا : «كيف تفسر أن الفاشستية، وهي تلعب دور الزانية ، قد انتقلت من فراش الطبقة العاملة الى فراش الطبقة الراسمالية ؟» . «انت صرحت امام الهيئات العمومية وفي الكتابة ان الفاشستية لن تطرح نفسها على قدم الملك ، لان الملك لا وحدة بينه وبين فكرة الوطن ، وقد كنت انت اول من طرح نفسه على قدم الملك ، انت يا من كنت تريد إعلان الجمهورية . كيف تشرح هذا ؟» «أنت أعلنت قتل الملوك واجباً أدبياً ، وشهرت الماليين بانهم قطاع طرق ، وحاربت الجيش ، وهاجمت الاكليروس وانكرت وجود الله ، واليوم انت المحامي الرئيسي عن هذه الاشخاص والافكار . كيف تفسر نفسك ؟» .

الفاشستية الايطالية ، وهي تلعب دور الزانية ، قد انتقلت من فراش الطبقة العاملة الى فراش الطبقة الراسمالية وطبقة الملاكين

الكبار - هنا بيت القصيد ! إن الفاشستية طبعاً لم يكن ينبض صدرها باي اخلاص للطبقة العاملة ، عهد تظاهرت بحبها واضطجعت في فراشها. ولكن ذلك كان طأنة منها للطبقة العاملة وبابلة لصفوفها وتمهيداً لمباغتتها بالخيانة — للانتقال الكلي الى فراش الطبقة الراسمالية وانشاء ديكتاتورية الراسمال الضخم الاحتكاري .

برغم حرص الفاشستية أن تنفصل من الراسمالية وتخفي حقيقتها ، نجدها في بعض ساعات الفورة تفضح نفسها بنفسها من غير وعي . لنأخذ لنا مثلا كلمة (دي ستيفاني) احد وزراء المالية الفاشيست : « لقد قطعنا علاقتنا بخطة دأبها مطاردة الراسمال . ان نظاماً مالياً اساسه اضطهاد الراسمال لهو نظام به لوثة جنون !! ولنأخذ لنا مثلاً آخر هذا التصريح الذي دفع به رئيس المنظمة الفاشستية (الفاشيو) في مقاطعة بزارو اوربينو الى اغنياء المقاطعة :

« لقد جمعت مؤخراً الاعانات التي منحها للفاشيو ملاكو هذه المقاطعة . من العبث أن أقول انني لا أعرف كيف أستعمل هذا المقدار العظيم من المال المنصب على الخزينة ! (تهكم) . بعض الاسياد ملاكو الملايين العديدة قد قدموا لنا مقادير هي بالنسبة الى الراسمال الذي انقذته لهم الفاشستية لا تكاد تبلغ شيئاً . بناء على ذلك ، وباعتبار اننا لم نكد نجمع شيئاً عن طريق الاساليب التي اتبعناها حتى الان ، فاني احذر ملاكي مقاطعة بزارو اوربينو انني سأفرض عليهم ضرائب على قياس راسمالهم ، وبهذه الطريقة أستطيع حالا ان انظم مالية مقاطعتنا ! »

وربما تخيل البعض ان الفاشستية عموماً هي من عمل شخص ، وان الفاشستية الايطالية هي من صنع موسوليني . وتلك وجهة من النظر

بعيدة عن الصواب جداً . لان الفاشستية ، كما أسلفنا هي بادرة تاريخية تظهر في مرحلة من التاريخ حين ترتاع البورجوازية الاحتكارية لمشهد أمواج الثورة تتعاظم عليها ، واشدة سرعة أزماتها المهددة لها بالتمزيق والاتلاف ؛ فتنقلب على الحقوق والحريات الديموقراطية وتفترسها افتراساً إذا استطاعت . اما الاشخاص مهما برزوا فما حكمهم إلا حكم الادوات والابواق تستخدمها هذه البورجوازية لما تطمع فيه من تحصين نفسها ، وليس أدل على صحة رأينا مما اتفق لموسوليني ذاته ...

في ٢٣ تموز ، سنة ١٩٢١ ، أعلن موسوليني هدنة بين الفاشستية واعدائها . واعلن استعداد الفاشستية لاتفاق تعاون بينها وبين احزاب اخرى ، منها الحزب الاشتراكي ! وفي آب وقع الاحزاب ، والفاشستية ايضاً ، اتفاق التعاون هذا . ومن جملة الامضاءات على الاتفاق إمضاء الدوتشي موسوليني بعينه . فماذا صنعت عناصر الرجعية — عناصر الثروات الطائلة والامتياز والاستثمار : أصحاب البنوك وأرباب المصانع وشركات البواخر وأصحاب الفنادق الارستوقراطية وأندية القمار والفسق وملاكو الارض الكبار ؟ هل احترموا إرادة الدوتشي وقبلوا الهدنة واتفاق التعاون أمراً واقعاً ؟ لا ! منذ الساعة الاولى صمموا على ضرب عرض الحائط بإرادة الدوتشي . وما هي إلا مدة يسيرة انقضت على الهدنة والاتفاق — من آب الى ايلول فقط — حتى بدأت معارضة الفاشستية لموسوليني تتفجر انفجاراً فعلياً . وفي بولونيا أنشد الفاشست أغاني ضد الدوتشي ، وظهرت كتابة كهذه عريضة في الشوارع : «من يخن مرة واحدة يخن مرتين !»

كان موسوليني قد كتب بخصوص اتفاق التعاون على أثر توقيعه:
«سأحمي بجميع قواي ميثاق السلم هذا الذي يبلغ في نظري أهمية

حادث تاريخي لانه فريد لم يسبق له مثيل . وفي سبيل هذا الهدف سأحاول أن أطبق المثل القديم الحكيم جداً : من لا يستعمل القضيب فانه يكره ابنه . فاذا كانت الفاشستية بنتي — وهذا ما قد عرفه كل انسان — فانني أقسم بقضبان ميثاقي وشجاعتي وعاطفتي انني سأصلحها أو أجعل حياتها مستحيلة ! »

وزاد على ذلك حين رأى عناد الفاشستية له : « إذا لم تتبعني الفاشستية فلا أحد يجبرني أن اتبع الفاشستية . انا الدوتشي ، زعيم ، وهي لفظة لا تسرني بنوع خاص بل تسر آخرين . ان عددنا كثير؛ الانشقاق لا بد منه ، دعه يقع . ميثاق السلم سيكون له رد فعل تنظيف الحزب !» .

إلا ان الفاشستية ـ بنت الدوتشي ـ لم تعبأ بجعجعة أبيها واتجهت في طريق إهمال وجوده تماماً . في المدن الصناعية ، في المناطق الريفية ، حيث الاملاك الكبيرة ، اشتد نشاط أرباب المصانع والملاكين الكبار ، وأخذوا ينظمون ويمونون تشكيلات فاشستية خاصة .

هنا انخلع قلب الدوتشي العطشان الى الزعامة وخشي أن يفلت من يده زمام « بنته » فعلا . وفي مؤتمر الفاشستية في روما ، تشرين الثاني سنة ١٩٢١ ، نهض فلحس إمضاءه عن اتفاق التعاون وقبر الاتفاق نفسه ، وأعلن وجوب حملات إرهاب ضد كل الاحزاب خصوم الفاشستية .

ولعل هذا كاف لأن لا يترك لنا مجالاً للريب في خطأ من ينظرون الى الفاشستية كأنها صنع شخص . ولا يرونها في ضوئها التاريخي الحقيقي ارتداداً الى وراء وموجة إرهاب من البورجوازية الاحتكارية المذعورة تخاف أن تخنقها حبائل أزماتها المتعقدة وتحرق

امتيازاتها لهبة الثورة ، فتتخذ تدابير الحماية لنفسها بالغاء حقوق الانسان وحرياته الديموقراطية تكتيفاً لايدي الشعب الواقع ضحيتها ومنعاً له من الحركة .

كن كلامنا وما استنتجناه حتى الان يدور حول الفاشستية الايطالية . فلنلتفت الان الى الفاشستية الالمانية تعزيزاً لصحة البحث :

***

النازية كالفاشستية الايطالية ، بدأت أمرها بالضرب على وتر حاجات الجماهير . أمامنا منهاجها الاساسي ، فلنتأمل منه في النقاط الآتية :

* الغاء المداخيل التي لايحصلها أصحابها بكدهم .

* كسر قيود العبودية للفائض .

* مصادرة جميع الارباح الناتجة عن الحرب .

* تحويل جميع الشركات ملكاً عاماً للامة .

* مقاسمة الارباح الناتجة عن الصفقات الضخمة .

* وضع اليد على الاراضي بدون تعويض في سبيل استعمالها العام .

* القصاص بالموت للمرابين وقناص الارباح .

ولئلا يدب دبيب من الشك بمقاصد النازية في نفس الراسمالية سعت النازية باكراً لطمأنة الراسمالية سعياً كشف القناع عن مقدار نفاقها وتضاليلها للجماهير . وهذا كتاب (درزدن) احد الزعماء النازي ، الى الراسمالي فريتشي في ويمار ابدع ما يمكن أن يدل على صفة النازية وحقيقة أمرها . قال درزدن : « لا تسمحوا لانفسكم ان تحيرها نصوص اعلاناتنا . . . من المؤكد ان هنالك عبارات هي فخاخ صيد مثل : فلتسقط الراسمالية الخ ؛ ولكنها عبارات ضرورية بدون جدال .

لاننا تحت لواء : الماني وطني ، او وطني فقط يجب ان نتيقن اننا لن نبلغ هدفنا ابداً ولا يكون لنا مستقبل . ينبغي أن نتكلم لغة العمال الاشتراكيين المستائين ... وإلا فهم لا يشعرون انهم في البيت معنا » .

تمكنت النازية من امتلاك ناصية الفن الفاشستي في النفاق وتضليل الجماهير . وتمكنت من الانتصار بفضل الفسوخ في جبهة خصومها أولا — جبهة الطبقة العاملة — وبفضل براعتها في النفاق (١) وإخفاء حقيقة انها ديكتاتورية الرأسمال الضخم الاحتكاري ثانياً . فتبعتها الجماهير المخدوعة على اعتبار انها حركة خادمة لمصالحها ـ أي : حركة ضد الرأسمالية الاحتكارية العاتية . ثم لم تلبث النازية بعد ان قبضت على مقاليد السلطة بيدها الحديدية أن بدت حقيقتها التي لا شك فيها : حقيقة ديكتاتورية الراسمال ، واصيبت الجماهير بالخيبات القاسية . وكانت أقسى هذه الخيبات خيبة البورجوازية الصغيرة . فلنتوسع قليلا ...

ذكرنا البورجوازية الصغيرة فما هي ؟ وما أهميتها ؟ البورجوازية الصغيرة هي الطبقة الوسطى الصغيرة التي تحتل الدرجات المتوسطة في سلم المجتمع بين رأسه وأسفله ـ أي بين البورجوازية الكبيرة التي تتمتع بالرساميل الضخمة المسيطرة ، وبين البروليتاريا المجردة من الملكية الخاصة . إنها لطبقة مبهمة الحدود في المجتمع الغربي الصناعي

(١) «ليس للالماني أقل تصور كيف يجب أن يضلل الشعب اذا كان الغرض استغواء الجماهير» يقول هتلر ومنطوق كلامه اعتزاز بهذه البراعة النازية في النفاق وفي استغلال طيب قلب الالماني العظيم . هذه الجملة هي من كتاب : كفاحي حذفت منه بعد الطبعة الثانية عشرة سنة ١٩٣٢

الحديث يكاد يتعذر عليك أن ترسم خط التمييز بينها وبين البورجوازية الكبيرة من جهة ، وبينها وبين البروليتاريا من جهة اخرى . انها لطبقة قلقة جداً أيضاً ، غيورة على كل ملكية خاصة ولو تافهة ، متشبثة بها بشكل شديد ، تحرص حرصاً قوياً على حياة مكتفية هادئة ، وتطمح إذا طمحت في الصعود الى مصاف البورجوازية الكبيرة . على ان نضوج الراسمالية وما يرافقه من التقدم في طريق الاحتكار وتكدس الثروات في أيدي اقلية على قمة الهرم الاجتماعي ، يؤذي البورجوازية الصغيرة اذى شديداً . يلقيها تحت رحمة البورجوازية الكبيرة ويهددها بالتلاشي ، لان القاعدة العامة هي : ان الراسمال الكبير يبتلع الصغير . يوماً فيوماً ، أزمة وراء ازمة من هذه المشاكل التي تأخذ بخناق المجتمع الراسمالي ، تلاعباً باسعار البضائع والعملة بعد تلاعب تلجأ اليه الاحتكارات لاكتساح الاسواق — تجد البورجوازية الصغيرة نفسها مضطرة الى أن تتخلى عن رساميلها الصغيرة ، عن صناعاتها وتجاراتها المتوسطة ، ومرغمة على الانحدار الى مصاف البروليتاريا تحتها . اين رساميلها وصناعاتها وتجارتها ؟ التهمتها البنوك الضخمة وشركات الصناعة والتجارة الاحتكارية ! فتنقم البورجوازية الصغيرة على البورجوازية الكبيرة . ولكنها في الوقت نفسه تخشى البروليتاريا كثيراً ، لانها تعتقد ان البروليتاريا تريد تجريدها من ملكيتها الخاصة . والواقع ان البورجوازية الكبيرة هي التي تجردها من هذه الملكية ، وتخرجها من الميدان بقدرتها على الاحتكار وبضغط مزاحمتها القهارة . وسبيل البورجوازية الصغيرة هي أن تضع يدها بيد البروليتاريا لايقاف طغيان البورجوازية الكبيرة عند حده أو للقضاء عليه .

بدلا من هذا السبيل القويم ، الذي أخذت تدرك صحته البورجوازية الصغيرة فتتحقق منه « جبهات شعبية » جبارة يرتجف لها الراسمال الضخم ، تضطرب في دماغ البورجوازية الصغيرة هواجس خطرة ، هي : هواجس تفكيك حلقات الراسمال الضخم الاحتكاري والعودة الى ايام الرساميل الصغيرة والمتوسطة في باكر عهد الراسمالية .

الفاشستية ، ديكتاتورية راس المال الضخم الاحتكاري ، تلعب لعباً ماهراً على هذه الهواجس . تجر معها جماهير الطبقة الوسطى الصغيرة ريثما تستقر في مقاعد الحكم ، ثم تخونها خيانة وحشية محتمة . هذا ما فعلته النازية تماماً . وهذا ما حل بالطبقة الوسطى الصغيرة الالمانية .

صغار الحانوتيين ، الصناع المستقلون ، صغار الموظفين ، الدماغيون الفقراء العاطلون عن العمل من محامين ومهندسين واطباء ومعلمين الخ .. وصغار الفلاحين — جميع هؤلاء اعتنقوا النازية وكانوا عمودها الفقري . منهم ومن أبنائهم تألفت « فيالق الهجوم » النازية (S A) و « رابطة الطبقات الوسطى التجارية للنضال » كان هؤلاء يهجسون بتفكيك حلقات الراسمالية الاحتكارية ، والقضاء على هذه القوة العاتية التي تدهورهم في هوة الافلاس وتضطرهم الى مغادرة اسواق المزاحمة .

في ٣٠ كانون الثاني ، سنة ١٩٣٣ ، عندما اصبح الحكم في يد النازية ظنت البورجوازية الصغيرة الالمانية ان حلمها يتحقق . ولكن هيهات !.

ان كل تلك الرغوة — رغوة عبارات التهديد للراسمالية — التي كانت طافية للعيان على وجه النازية انقشعت ، وبدت حقيقة النازية :

ديكتاتورية الراسمال الضخم الاحتكاري، ديكتاتورية على البورجوازية الصغيرة أيضاً كما هي ديكتاتورية على البروليتاريا!

يكفي شاهد او شاهدان بسيطان لننفي عنا كل شك في صحة ذلك، تحت ظل الحكومة النازية الجديدة، تألفت حالا هيئة للاشراف على اقتصاديات البلاد دعيت «المجلس الاقتصادي الاعلى الموقت» فمن كان أعضاء تلك الهيئة؟

أبورجوازيين صغاراً. يمكننا أن نسرد اسماء أهم الاعضاء ونرى:

الهر كروب فون بولن. ملك السلاح في المانيا، تقدير ثروته الخاصة ٦ ملايين جنيه، راسمال صناعته ٥١٥ مليوناً.

الهر فريتز تيسن. ملك الفولاذ، تقدير ثروته الخاصة ٦ ملايين، راسمال صناعته ٥٤٠ مليوناً.

الهر ف. ك. سميتز. ملك الكهرباء، تقدير ثروته الخاصة ٦ ملايين ونصف، راسمال صناعته ١٢ مليون ونصف.

الاستاذ كارل بوش. مليونير شركة الصباغة، تقدير ثروته الخاصة مليون، راسمال صناعته ٤٠ مليونا.

الهر أ. دين. مدير سنديك البوتاس، راسمال صناعته ١٠ ملايين.

الهر بوخرنكر. مدير مصانع فولاذ مكسيمليان، راسمال صناعته مليون ونصف.

الهر فون شرويدر. صاحب بنك.

الهر فون فنك. صاحب بنك.

الهر ف. رينهارت. صاحب بنك.

وفي سنة ١٩٣٤، نظمت الحكومة النازية الصناعة الالمانية، بتقسيمها الى اثني عشر قسما: كل قسم تحت ادارة الراسماليين الضخام

فيه ، والكل تحت ادارة الهر كروب فون بولن ملك السلاح المذكور آنفاً .

لعلنا في غنى عن القول ان حلم البورجوازية الصغيرة الالمانية تبخر الان . ليس هذا ما سعت له وما انتظرته . الراسماليون الضخام الاحتكاريون هم على كراسي الحكم في الدولة الجديدة . « رابطة الطبقات الوسطى التجارية للنضال » حلت بعد ٣٠ كانون الثاني ، سنة ١٩٣٣ ، بقليل ! إذن فالثورة - يعني ثورتها ضد البورجوازية الكبيرة ورأس المال الضخم الاحتكاري - لم يتم منها شيء مطلقاً . فليكن هناك ثورة ثانية ! هاك ما نطق به أحد شباب الـ (S.A) بعد صعود النازي الى الحكم : « ان ثورتنا قد بدأت فقط . اننا لم نبلغ هدفنا من اهدافنا بعد . يتكلمون عن الحكومة الوطنية ، عن اليقظة الوطنية . أي شيء هو هذا ؟ ان المهم هو القسم الاشتراكي من منهجنا . لم يزل امامنا غير عدو واحد نكنسحه : « البورجوازية » . وهاك ما نطق به شاب آخر : « كيف يستطيع رفاقنا في الحكم أن يعتقدوا ان الراسمالية ، العبودية للفوائض ، الاستثمار الوقح قد ازيل . انهم يمشون صفوفاً أمام البورصات ، أمام الواجهات المتوجة ؛ إنهم يقرأون في الجرائد البورجوازية لوائح الحساب وأثمان الاسهم . انهم يرون الراسماليين يدافعون عن آخر قلاعهم بقوة المستيئس . ولهذا فان حركتنا لا يمكنها أن تأخذ مهلة . فلنتابع نضالنا بالروح السابقة ، لأن اشياء كثيرة لم تزل وراء منالنا . نحن نأمل أن لا تبدل ثورتنا الوطنية الاشترا كية صفتها ما دمنا لم نشيد الريخ الثالث بعد ! »

لتكن هناك ثورة ثانية ! ولكن الرأسمال الضخم ، وهو ديكتاتور الموقف الان ، لن يسمح بهذه الثورة الثانية بتاتاً . وادولف هتلر ،

(در فيرر)، خادم الراسمال الضخم، الذي يعرف كما لا يعرف غيره مقادير الاموال الهائلة التي انصبت على خزائن حزبه من (فريتز تيسن) ملك الفولاذ وغيره من طبقته حتى اليهود منهم[1]، لن يسمح بهذه الثورة الثانية ايضاً. في ٢ حزيران سنة ١٩٣٣، في اجتماع حضره زعماء الـ «القمصان السوداء»، (S.S) بأوديختنال، خطب صائحاً:

«سأسحق بهمجية وبدون شفقة، كل محاولة يأتيها الرجعيون أو أية هيئات اخرى لقلب النظام الراهن. وسأرتد بعدم الشفقة ذاته ضد ما يسمونه الثورة الثانية، لان ذلك لا يمكن أن تنتج عنه إلا نتائج فوضى. من ينهض مقاوماً لدولة الوطنية الاشتراكية، فسأضربه بقسوة اين كان!».

وأعد (در فيرر) العدة ضد أي عمل قد يصدر عن الـ (S.A)، فضخم بين سنة ١٩٣٣ و١٩٣٤ حرسه الشخصي «القمصان السوداء» (S.S) وهم مرتزقة موضوعون تحت السلاح لحماية مصالح أرباب المصانع، وكبار الملاكين شرقي نهر الالب.

على ان الحديث عن الثورة الثانية استمر. فكان لا بد للنازية، ديكتاتورية راس المال الضخم الاحتكاري، من ان تتخذ التدابير التي توعد بها هتلر خصوم النظام الراهن في خطابه: أي السحق بهمجية وبدون شفقة!

وفي ٣٠ حزيران، تنفذ هذا السحق بهمجية وبدون شفقة فعلا! تنفذ بالمسدسات والفؤوس اغتيالا، بدون محاكمات، تحت أستار الظلام،

(١) راجع كتاب «المانيا توخر الساعة» للصحافي مورر، طبع سنة ١٩٣٣، صفحة ١١٧؛ فتجد كيف ان يهوديا المانيا صاحب بنك في برلين يشرح لحلقة مندهشة حوله انه كان معاونا ماليا مداوما للحزب النازي.

في مخادع البيوت بين اذرعة الغلمان ، واشترك فيه مسدس ادولف هتلر نفسه – مما اقشعر له العالم المتمدن جميعاً . وسقط قادة الـ(S. A) صرعى . سقط كل من يدور في خلدهم هاجس الثورة الثانية ، ومعهم رويم رئيس الـ(S.A)! والنازي الان يقررون انهم وطدوا دعائم ديكتاتورية الرأسمال الضخم الاحتكاري الى الابد .

٤ – جرائم الفاشيستية : ابادة حقوق الانسان وبعث الهمجية

كتاب لهنري باربيس

بعد هذه المحاولة منا للاطلاع على جوهر الفاشستية وفهم نفاقها وحقيقة حركتها الارتدادية ضد حقوق الانسان – إنسان الجماهير – وحرياته الديموقراطية ، ينبغي لنا الان أن نتقدم الى رؤية حقوق الانسان معروكة تحت أقدام الفاشستية تمزقها بمخالبها – وإن كان المشهد يدمي النفس .

في ظلال الفاشستية الان تقوم المقابر الكثيرة ، وعلى كل قبر لوحة مكتوب عليها اسم الدفين ...

هنا قبر حرية الطباعة والنشر! يقوم مكانها الكذب والتشويه والتهويش . يزور الشاعر الشرقي الكبير ، رابندرانات تاغور ، روما فتصدر الجرائد ملأى بذكر إعجابه بالفاشستية وأماديحه لها . وتاغور في غفلة عن كل ما يجري . حتى اذا اكتشف ذلك ثار ثائره ، وأعلن رأيه الصحيح في الفاشستية ، في جريدة (نوبي فراسي برس) بفيينا قائلاً في ختام حديثه : « من السخف ان يمر في الوهم انني اناصر في حياتي حركة تخمد حرية التعبير بدون رأفة وتوجب

مراعيات هي ضد ضمائر الافراد ، وتمشي خلال طريق ملطخ بالدماء من البطش والاجرام الاغتيالي » .

ويعطي السياسي الانكليزي ، لويد جورج ، رأيه في الفاشستية بخطاب كما يلي : « انني لاذكر كيف سببت الثورة الفاشستية ، ولا تزال تسبب ، في صفوف حزب المحافظين إعجاباً وإطراء للحركة الفاشستية وزعيمها القوي . إيطاليا ، فردوس أرضي ، حيث طرد أفعى الفوضى منها ملائكة لابسو قمصان سوداء يحمون الجنة من رجوع الافعى ! ـ تلك كانت الصورة منذ سنة . تستطيعون ان تروا الان لانفسكم ماذا هناك . الحرية قد اخمدت تماماً . القهر ، التهديد ، الاحراق ، المصادرة ، القتل كلها قد اصبحت اساليب الحكومة ! » .

فكيف يظهر ذلك في الجرائد الايطالية ، كما تذيعه وكالة ستيفاني المزورة الفاشستية :

« صرح لويد جورج ان الاشتراكية ، في ايطاليا بعد الحرب ، كان لها تأثير وخيم على الصناعة . والامة ، وهي في حالة يأس ، قبلت يد المساعدة الفاشستية . انني لاذكر الغبطة التي وافق بها حزب الاحرار على الثورة الفاشستية وزعيمها القوي موسوليني الامجد . . . »

ويقول برنارد شو الاديب الانكليزي الشهير :

« لقد صنع موسوليني لايطاليا ما صنع نبوليون لفرنسا . الفرق فقط انك يجب أن تقرأ بدل « دوق دانفيان » (الذي اغتيل بامر من نابوليون) اسم ماتيوتي » .

فيظهر ذلك في الجرائد الايطالية :

« موسوليني سيدون منزلة نابوليون العسكرية ، قد صنع لايطاليا ما صنعه نابليون لفرنسا تماماً » .

...وهنا قبر الحرية الشخصية وتنزيه الكرامة الانسانية عن التعذيبات الجسدية البهيمية ! واي حياة للحرية الشخصية وشراك التجسس والوشاية ممتد الى كل زاوية لا تأمن من العثار به قدم أي انسان . حتى لقد امتد هذا الشراك من داخل البلاد الى خارجها لملاحقة المهاجرين والشرد من فظائع الفاشستية . وعلى ذكر هؤلاء يقول السنيور (السندرو ملخيوري) نائب السكرتير الفاشستي العام:

« يجب ان يصادوا كالوحوش ، كالفهود . يجب ان نضطهدهم بدون رأفة لنجعل حياتهم مستحيلة بقطع النظر عن المكان الذي يعيشون فيه . أعتقد انه من الضروري ان نجعل كل بلدية تلصق في قاعة المدينة العامة لائحة بأسماء المهاجرين ، وعناوين عائلاتهم في ايطاليا . ومن المطلوب ايضاً ان نجعل هذه العائلات ترغم مهاجريها على العودة ، وإلا فيقعون تحت خطر العقاب الصارم . ان المواطنين هنا إذا جعلوا عائلات المهاجرين عرضة لهجمات العقاب والانتقام ، فان ذلك يضطر أولاد الزنى ان يمتنعوا من كل عمل نفعي ! » .

فاذا كان هذا شأن الفاشستية مع خصومها المشردين الى خارج بلادها ، فما هو شأنها معهم في داخل البلاد ؟ لقد كثر ضحاياها حتى وجد أصحاب الضمائر التي يهزها حب الانسانية ضرورة لتأليف لجان الدفاع عن هذه الضحايا . يساهم في هذه اللجان رهط كثير من عظام كتاب العالم ورجال الفكر . وهذا نص كتاب طويل نسوقه برمته لما فيه من المعلومات المنيرة عن صفة الفاشستية الهمجية ، كتبه الاديب الانساني الطبيب الذكر (هنري باربيس) وهو رئيس « لجنة الدفاع عن ضحايا الفاشستية » الى السفير الايطالي في باريس :

« أنباء فاجعة لا تزال تبلغنا من السجون الايطالية زيادة عما

بلغنا ، وقائع تزيد فينا اليأس بخصوص مصير ٦٠٠٠ سجين من معارضي الفاشستية نعرف من مصادر مختلفة وحرية بالثقة انهم مقذوفون في السجون في ايطاليا أو منفيون الى الجزر . من كل مكان ، من ايطاليا ، تجيئنا المعلومات مثبتة وراء الشك حقيقة ان التعذيب قد أصبح جزءاً من نظام السجون لدى موسوليني . وفي ما يلي عدد ضئيل من أجد الحوادث التي يطلب الرأي العام العالمي ، الذي نعبر عنه ، كشفها لوضح النور :

« في ميلان عثر البوليس في غرفة ، في ١٩ « فيا كبوفيو » ، على مستودع للمجلة الماركسية « ستاتو اوبرابو » . وكان المحررون قد قرروا ان يطبعوا هذه الصحيفة سراً بسبب فتك موسوليني بجميع الصحف المعارضة للفاشستية . فادى ذلك الى اعتقال (فرنسيسكو ليوتي) صحفي ، و (بوزيللي) عامل ، بتهمة توزيع المجلة معاً . واعتقل بواب الدار التي تقوم فيها الغرفة (انطونيو سانغيتو) وامرأته ايضاً . طبقاً لاوضاع البوليس ، نحن نعرف أن بواباً لا يمكن ان يعين في وظيفة ما لم يكن شخصه مرغوباً فيه لدى السلطات ، وهو مأمور ان يتجسس على النازلين في بنايته ، ويستطلع ميولهم السياسية ويعطي معلوماته للبوليس . واذا كان قليل العناية وفاته شيء من ذلك فانه يعتبر شريكاً في الجرم .

« حسب المألوف ، وضع البواب سانغيتو وامرأته والسجينان الآخران رهن التعذيب . لقد شاء البوليس أن يحصل على أسماء آخرين لهم شركة في القضية . على ان البواب لم يستطع ان يقول شيئاً ، لانه لم يكن يعلم شيئاً . وبينما كان ليوتي وبوزيللي فتيين قويين يستطيعان تحمل التعذيب ، كان سانغيتو ضعيفاً ، ومتقدماً في السن ...

بعد مدة أعلنت وفاته ! متى حدثت هذه الوفاة ؟ في أي ظروف ؟ ولأي سبب صدر الامر بدفنه سراً دون السماح لعائلته أن تطالب بفحص الجثة ؟ ولدينا علم ان امرأة سانغينتو ، التي كانت لا تزال في الحبس ، جنت جنونا عند تلقي خبر موته. أيمكن أن تكون وقائع كهذه لا أساس لها ؟ ؟

« وهذا نموذج آخر من الفظاعة التي لا يكاد يعقل وقوعها . فقد جاءنا من ميلان ان مدير المحطة في سندريو (السنيور بيرولا) الـ عليه القبض لانه كان على اتصال مع جماعات معارضة للفاشستية في ميلان وبرسيا . فحمل من سندريو الى ميلان حيث استخدمت كل آلة من آلات التعذيب طمعاً في استخراج قرارات منه بالقوة يرغب فيها البوليس ... بعد شهر انبئت عائلة السجين انه شنق نفسه في حجرته في السجن . وهذا تكرير تماماً لقضية سوزي ، ويدلنا ان خبر الانتحار الذي اذاعه البوليس انما هو صيغة رسمية فقط لوصف ميتة كل سجين يتحطم تحت ثقل التعذيب . وقد حُرم فحص الجثة وحضور الدفن . والحقيقة ان الضحية دفنت بصورة سرية جداً ، خلال الليل ، قبل أن انبئت العائلة بخبر الموت . اي داع يمكن أن يكون لمثل هذا السلوك سوى الحرص على تغطية جريمة؟ ان السلسلة الفظيعة من المعلومات لم تنته بعد .

« لقد تلقينا من جنوى اخباراً رهيبة . وردتنا الافادات ان سجون تلك المدينة تستخدم آلات لحمل الانسان على الكلام قهراً ، آلات هي طبق الاصل من عهد ديوان التفتيش .

« وتتألف (الآلة) من حجرة مجهزة تجهيزاً جيداً لاجراء أشد التعذيبات إيلاماً . ولقد لبس أحد السجناء (طقم) هذه (الآلة)

القطيعة مؤخراً واسمه ريولي صانع احذية من كوريكو · نزل به التعذيب الى درجة اضطر معها الجلادون ان ينقلوه سريعا الى مستشفى السجن · ولكن بعد مستشفى السجن ماذا ؟ سكوت ! لا شيء يعرف عنه الان · ويقال انه هو الاخر قضى نحبه أيضاً · استناداً الى هذه الحوادث التي تطرق مسامعنا دائماً يظهر ان السجون الفاشستية قد تحولت الى مسالخ · وعدا عن هذه الشواهد من الالم القاتل والموت. شواهد هي القليل مما يمكن أن يخلص الينا خلال جدران السجون الفاشستية الكثيفة — فان لدينا انباء عن حوادث اخرى من التعذيب تلقي ضوءاً قبيحاً على أساليب القمع والاضطهاد التي تلجأ اليها الحكومة الفاشستية ·

« سبق لنا الاحتجاج قبلا في موقف ماض على التعذيبات التي تنال السجناء السياسيين المضبوطين تحت طبقات الارض في حجر قلعة برسيا البغيضة ، مدينة وسكن سكرتير الحزب الفاشستي ·

« وان حادثة بولويت لمعروفة جيداً · فهو ما زال يعذب حتى اختل · ويعيش الان وراء أقفال أحد مستشفيات المجانين · خامرنا الشعور في ذلك الوقت ان تلك حادثة فريدة شاذة من الفظاعة · أما الان ، فالعكس هو الواقع · الواضح اننا امام نظام ، امام جهاز للتعذيب مدار جيداً ، يتلقى الاوامر من موظفين عالين ، ومن منظمة مركزية خلقتها السلطة الحاكمة وهي تتصرف بها · وقد انتهينا الى استنتاج كهذا من حقيقة أن التعذيبات تجري على السجناء السياسيين طبقاً لاسلوب مدبر قبلا ، ومتشابه في كل السجون الايطالية · فضلا عن النخز بالعصي المجهزة في اطرافها بالرصاص المقشى ، فضلا عن اللكمات وفي الاكف قفازات حديد ، فضلا عن هذه الامور التي يجري

استعمالها في جميع مراكز البوليس ، فان لدينا المعلومات ان الاساليب الآتية يخضع لها السجناء السياسيون من أجل اضطرارهم للكلام :

١ — ضربات تفجر الدم . (حوادث تريست ومونولكوني التي شهرت بها الصحف) .

٢ — استعمال المياه الغالية لزج أيدي المساجين فيها استخراجاً للاقرارات منهم بتأثير الالم الجسدي (حوادث ميلان وبرسيا)

٣ — التجويع ، الظلام الدامس ، اللكمات بين الحين والحين (استعملت هذه الطريقة اولا في برسيا ، وطبقتها فيما بعد جميع السجون الفاشستية)

٤ — الحقن بمواد كيمية من أجل إحداث حالة جنون والحصول على معلومات من السجين وهو في هذيانه

٥ — وخز الخصي بالدبابيس حتى يبدأ الالتهاب الخطر (برسيا وجنوى)

٦ — شد الخصي في بعض الحوادث بالسلاسل او الحبال وتزييد الالم بضغط مستمر (روما . نابولي . جنوى)

٧ — غرز الدبابيس عميقاً تحت الاظافر (تورين . جنوى . ميلان)

٨ — حقن من محلول صبغة اليود يصدر عنها التهابات مؤلمة في الامعاء (بروجيا)

٩ — حز اللسان بالمدى

١٠ — تقليع الشعور الخاصة بسن البلوغ ، الشعور حول أعضاء التناسل (كما وقع في مونفالكون ، وميلان للسنيوريتا اليانور انضوتي التي اوصلت الى المعالجة الطبية محتملة من الالم)

١١ — استخدام الحشرات لانتزاع اقرارات من المساجين

السياسيين ، كما في فلورنسا حيث يضعون خنفساء سوداء تحت قدح زجاج على بدن الضحية ثلاث أو اربع ساعات حتى يتكلم .

« إن هذه الاعمال التي سردناها هنا تعطي فكرة ناقصة جداً عن المصير الذي ينتظر السجناء السياسيين . والواقع ان التعذيبات لا تجري منفردة أبداً ، بل على العموم تجري عدة تعذيبات معاً حسب طاقة السجين على التحمل ، وحسب اهمية المعلومات المطلوبة . وانه لمن المستحيل إخفاء حقائق كهذه الى وقت أطول ، وأن فظاعة هذه الاعمال لتثير الغضب في الرأي العام العالمي في كل امة متمدنة . فباسم الانسانية المهانة اننا نصر على السفارة الايطالية ان تأخذ عريضتنا بعين الاعتبار .

« إننا نطلب إطلاعنا على الحقيقة كلها فيما يتعلق بالتعذيبات التي شهرنا بها ، وفيما يتعلق بالحوادث التي تسببت عنها الوفيات من جراء التعذيب كما في حادثة غاستون سوري واكوسينيا سانغيتو ، وبيرولا ، وريولي ايضاً على الارجح (مع اننا نأمل أن يكون بقي حياً)

« ونطلب لجنة تحقيق عالمية تزور السجون وجزر النفي حيث يحتشد ما يناهز ٦٠٠٠ سجين سياسي

« هذه العريضة المرسلة اليكم ثانية ، باسم المدنية ، ناشئة من طلبات ضمائرنا التي لا تسكت بصفتنا اناساً أحراراً . نريد أن نضع حداً لهذه الحلقات الدامية من التعذيبات ، واذا كنتم تصرون على التزام الصمت فانكم تنجحون فقط في تهييج حركة الاحتجاج الغاضبة ضد الفاشستية في جميع البلدان التي تدري بأعمالها الوحشية ! » . (١)

(١) النص ماخوذ من كتاب : ايكون هذه الاشياء أن تكون للصحافي جورج سلدس ، طبع سنة ١٩٣١ صفحة ١٦١ فما يلي

هذه هي الفاشستية ومخالبها الفتاكة في ايطاليا . فكيف هي في المانيا ؟ انها ليست أقل فتكاً من الفاشستية الايطالية على كل حال ، ولعلها أفتك . ان معتقلات النازي هي موضوع لوقوف شعر الرأس . يكفي أن تقرأ كتاب اندريه مالرو الصغير « زمان القرف » حتى تدرك هذا ، حتى نعلم كيف يعذب السجناء السياسيون وكيف يقتلون في أغلب الاحيان ويعلن موتهم على الملأ لا بصورة « انتحار » كما في ايطاليا بل بصورة « إطلاق الرصاص عليهم وهم يحاولون الفرار » . الهجمات على الدور ، والتقتيلات التي ارتكبها النازي ضد خصوم الفاشستية ، وضد بعضهم سنة ١٩٣٤ ، بالفؤوس والمسدسات والخناجر الخ . خلال خمس سنوات من حكمهم قد استطاعت جعل هذا الزمان « زمان قرف » فعلا كما يدعوه مالرو . فلنقرأ ما تقول (المانشستر غارديان) عدد ٢٠ نيسان سنة ١٩٢٣ :

« الارهاب الاسود كل يوم ينقلب اسوأ من يوم . لقد استحال الى حرب إبادة يشهرها « القمصان السوداء » على كل اليساريين . جميع دعاة النقابات وحزب الاحرار ودعاة السلم والاشتراكيين والشيوعيين ودعاة التفاهم الاممي الذي كان لهم شيء من البروز بشكل منظمين أو كتاب أو خطباء ، ولو كان ذلك في فرع محلي أو في قرية أو في شارع ، يقعون الان في خلال القسم الاعظم من المانيا تحت خطر الطرد او التعذيب البدني او السجن . واضطهاد اليهود إنما هو حملة فرعية في هذه الحرب . ومن يلبث أميناً لمبدئه — وهناك أشخاص كذلك — فان النازي يعتبرونهم متطرفين وان كانوا معتدلين ، وثواراً وان كانوا طلاب إصلاح فقط . ينطبق هذا أيضاً على الذين جاروا النازية وهم تحت خطر التضحية بانفسهم ، أو بعد أن ضعضع

التشكيل معنوياتهم ، ولكنهم احتفظوا رغم ذلك بمبادئهم الاولى . ان ثمن البطولة لباهظ جداً ، فلا لوم على أحد إذا لم يكن بطلا . مع أن من يكن بطلا يصبح موضوع المهابة . ولا شك ان كتلة الابطال الحديدية التي تتكون الآن ستفرض نفسها بقوة يوماً ما .

« في أيام الارهاب الاولى — أي في النصف الاول من آذار — كانت صراخات المعذبين تسمع في الاسواق أمام بعض « البيوت السوداء »[1] ولكن قد اتخذت الحيطة للوقاية من هذه العلانية فلا صوت الان يبلغ آذان العالم الخارجي . وكتم السر المطلق مفروض فرضاً قهرياً على كل واحد في طول البلاد وعرضها . ويضطر المعذبون الى اداء اليمين انهم لن يفوهوا بكلمة واحدة ولو تحت طائلة العقاب بالموت أو التعذيب من جديد . والكثيرون منهم يرغمون حتى على إمضاء عبارات تفيد انهم عوملوا معاملة حسنة !

« إن الارهاب مخيف وعدد الضحايا كبير ، الى درجة انه لا يمكن إبقاء الامر سراً ، سواء أكان ذلك في المانيا أو في الخارج . الالوف العديدون الذين ترى ظهورهم مقشرة ورؤوسهم معصبة ووجوههم مخدشة وعظامهم وأسنانهم مكسرة ، والذين يضطجعون في المستشفيات وفيهم طعنات السكاكين وثقوب الرصاص او هروس فظيعة ، والذين يجوسون خلال الاسواق . كل هؤلاء شواهد كافية . وإذا سئلوا عما بهم ، فانهم لا يجيبون بأكثر من نظرة ارتعاب » .

في ظلال الفاشستية لا تحصى اللوحات المركوزة على القبور . نمضي في تعديدها ، فنجد زيادة على ما سبق ذكره ، لوحة مكتوباً عليها هنا

(١) مراكز أصحاب القمصان السوداء في المانيا.

قبر الثقافة والادب قبر الفكر والفلسفة[١] ... في ايار ، سنة ١٩٣٣ ، وقعت حوادث في المانيا لم يشهد مثلها العالم منذ القرون الوسطى . حوادث مخزية تضع يدنا وضعاً لمس حقيقة قتل الفاشستية للعلم والثقافة عموماً . في ٦ أيار هجم النازي على « معهد البحث الجنسي » الذي يديره الدكتور ماغنس هرشفيلد ، علامة الابحاث المتناسلية . وكان قد جمع في معهده مجموعة ربما كانت أكمل مجموعة في ادب الجنسيات في الدنيا . جمعها صاحبها لتساعد معهده على معالجة المشاكل

(١) ونستطيع أن نقول : ان هذا أمراً اشتهرت به الفاشستية لدى الناس واصبح غير مشكوك فيه عندهم . فها انا ناخذ الاهرام عدد ١٣-١٢-١٩٣٧ فنقرأ فيه نقلا عن جريدة « الانباء الثقافية في جنوب افريقيا » وهي جريدة تنطق بلسان جمعية المدرسين ، ما يلي :

« لما كان الاساتذة والمدرسون حفظة على العلم ، واداة لنقل الثقافة الى الاطفال والشباب فانهم يقفون اليوم امام تحول مخيف سواء احبوه ام لم يحبوه ، وسواء ادركوه ام لم يدركوه .

وسيكون عليهم ان يختاروا بين امرين ، فاما ان يدعوا الفاشستية تتغلغل في البلاد بغير كابح ، وتحدث فيها احداثها التدميرية ، واما ان يقفوا في سبيلها ويعارضوها بكل قوة ونشاط .

وقد لا يكون من المستطاع ، او من المرغوب فيه ، ان يحارب الاساتذة الفاشستية في الميدان السياسي ، ولكن من واجبهم ، ومن حقهم الخاص ان يحولوا دون تطفلها بالدخول في نطاق الاراء ، وفي حيث تزدهر العلوم والمعارف

ان انتصار الفاشستية معناه انتصار العنف ، والتعصب الذي لا يعرف التسامح ، بل معناه انتصار الرق في مظاهره الادبية والثقافية والجثمانية ، والقضاء على الثقافة والمدنية . فهي تنتشر الان سريعاً فماذا عسى يستطيع الاساتذة فعله لوقفها من قريب ؟ .

يجب على هؤلاء الاساتذة والمدرسين ان يعلموا الطلبة والتلاميذ ان يفكروا بالشجاعة ، وان ينقدوا ، ويسألوا ويشكوا وان يطلقوا « الحرية الكاملة لقوى التخيل الكامنة فيهم »

ولقد أصاب هؤلاء الاساتذة ، فان الفاشستية لا يسد طريقها شيء كالتربية على الاستقلال الفكري

التناسلية وإيجاد تربية جنسية مضبوطة يشكو فقدها الشباب ، ويتورطون في أغلاط وتطرفات ربما لوثتهم بالامراض وشوهت مستقبلهم أو قضت عليه قضاء مبرماً . جاء النازي هذا المعهد صباحاً ، ونفخوا في بوق من أبواق الهجوم ، وكأن في آذانهم صدى قول مارينتي الفاشستي الايطالي المعتوه ، المحسوب على الشعر : « انانية اتلاف المتاحف وإحراق المكاتب » ! ثم اندفعوا الى داخل المعهد فجرّوا من مكتبته الثمينة الوفاً من الاسفار والكراريس والرسوم ، كما وقعت عليها ايديهم ، وقذفوها في سيارات الشحن التي معهم . وعادوا بعد الظهر فأكملوا عملهم الهمجي ، وخربوا البناية وأتلفوا سجلات تحقيقات علمية قيمة بعضها يخص المعهد والدكتور هرشفيلد وبعضها يخص اللجنة العالمية للاصلاح الجنسي !

وما وقع لمعهد الدكتور هرشفيلد وقع لمكاتب كثيرة في طول البلاد وعرضها .

ماذا حدث للكتب التي صودرت ؟ في ١٠ ايار أقيم احتفال همجي نشك أن العالم شهد له موازيا حتى في القرون الوسطى . في ذلك اليوم ، حوالي نصف الليل ، اجتمع في الساحة الكبيرة في « اونتردن لندن » مقابل جامعة برلين ما يقرب من أربعين الف نازي زحفوا زحفاً الى المكان ، وفي أيديهم المشاعل ، وبمشاعلهم أضرموا كومة عظيمة من الحطب كانت مجهزة هناك تربيعها ١٢ قدماً وعلوها خمسة أقدام . فلما تصاعدت السنة اللهب ، والمطر ينهمر رشاً خفيفاً ، أخذوا يتقدمون من النار ويقذفون لهما بما يحضنون بين أذرعهم من الكتب . مؤلفات لجاك لندن ، ابتون سنكلير ، ه . ج . ولز ، هفلوك اليس ، اندريه جيد ، اميل زولا ، مرسيل بروست ، لينين ، ستالين ، ماركس ، انكلز ،

اميل لودفيج ، أريك ريمارك ، توماس ، البرت اينشتين وغيرهم وغيرهم - مؤلفات اودع فيها اصحابها ذوب ادمغتهم وقلوبهم ودروساً من التاريخ وأشعة امل للانسانية ، فجاءها النازي همج الفاشستية وذروها رماداً .

لماذا تتيبس الثقافة تحت جو الفاشستية الخانق . لان الثقافة ذات القيمة لها مصدر واحد لا يتغير ، سواء أكانت هذه الثقافة علماً أو ادبا أو فلسفة . ذلك المصدر الحي الغزير هو : حب الرقي والسعادة بجميع الاشكال ، فرديا واجتماعياً ، اقتصادياً وسياسياً ، مادياً ومعنوياً . متى انطفأت جذوة حب الرقي والسعادة في صدر الانسانية ، انطفأت الثقافة معها ... لان الثقافة ذات القيمة إنما هي رؤيا أو خطة تمكن الانسان من تقرير مصيره بيده ، أي من السيطرة على الفواعل التي تؤثر في حياته ومنعها من أن تتلاعب به على هواها ، فواعل طبيعية واجتماعية وسياسية واقتصادية . الثقافة مثلا تقوي الانسان على امتلاك زمام الطبيعة بمكتشفاتها العلمية ولا تتركه عرضة لتقلبات الطبيعة وطوارئ المصادفة .

والفاشستية لا تؤمن بالرقي والسعادة . ولا تسمح بتشجيع حب الرقي والسعادة ، فلذلك نراها ثقيلة بغيضة على الثقافة تجففها من ينبوعها وتبيدها إبادة .

يقول موسوليني : « نحن فوق كل شيء . لا نؤمن بالسعادة ، بالخلاص » ويقول ايضاً : « في الحياة الحقيقية لا توجد سعادة » وأيضاً « الفاشستية لا تؤمن بامكانية السعادة على الارض ! »

ويلعن أحد العسكريين النازي — ممثلاً نفسية النازية كلها — تلك الروح المستبرية التي تزعم « ان البشرية خلال ملايين السنين

كانت على طريق صاعدة مزينة عن يمين وشمال بشارات الرقي » ثم يتساءل « كيف رسخت هذه الفكرة ؟ من المؤكد ان كل واحد يعرف من تجاريبه ان الحياة دائرة وليست خطاً » .

يريد هذا الفاشستي الاجوف النفس من كل اعتقاد بالرقي أن يجوفنا من اعتقادنا برقينا ويقنعنا ، ليس فقط ، اننا ان نتقدم في المستقبل بل اننا لم نتقدم في الماضي ، ويدلنا ان الحياة إنما هي دائرة لا خط ، وأننا في حياتنا أشبه بالكدشان الكادحة المقطورة حول ناعورة في حلقة ، هي الحلقة ذاتها أبداً دائماً ، في دوران مستمر لا ينقطع ...

أجل ان حركة كالفاشستية ، تجزم هذا الجزم بان السعادة والرقي إنما هي وهم ، لا يمكنها ان تولد شيئاً من الثقافة الصحيحة التي لاتصدر الا عن شغف الانسان بالسعادة والرقي ، وعن إيمانه بإمكان نيلهما وسعيه الحثيث من اجلهما . الفاشستية لا يمكنها ان تولد ثقافة — اللهم إلا ثقافة الهرب من الحقائق وعدم التعرض لمشاكل الحياة الواقعة (من شعوذات موسوليني ان : ليس من الضروري ان تكون هناك حقيقة !) وذلك .ما لا يمكن ان يعد ثقافة صحيحة لائقة بحال من الاحوال ، بل هو اتجاه بعقول الناس وعواطفهم عن الكفاح ضد المظالم والنكبات الواقعة بهم الى تضييع نشاطهم وفعاليتهم بأوهام وخيالات . ونستطيع أن نعتبر صدق ما قلناه بنظرة واحدة الى حقول الثقافة المحللة في المانيا وايطاليا اليوم ، بالقياس الى خصوبتها في فرنسا الديموقراطية .

« ان العضو الفاشستي سيشهد بانتهاء العمل العقلي » يقول موسوليني : « الزعماء الحقيقيون ليس لهم أي حاجة في الثقافة » يقول

غورنغ . والعمل العقلي هو فعلا في حكم المنتهي في ايطاليا الفاشستية . وخير أثر ادبي ايطالي حديث بشهادة النقاد الكبار ، هو رواية « الحياة في فونتمارا » للكاتب سيلوني وهي رواية ضد الفاشستية . والثقافة والعلم في المانيا النازية لا حاجة للزعماء فيهما حقاً . وهذا الخبر الذي نشرته جريدة الاهرام (١٧ـ ٦ ـ ١٩٣٦) دليل كاف :

« منذ استولى جماعة النازي على الاحكام في المانيا ، سنة ١٩٣٣ الى اليوم تناقص عدد الطلبة في الجامعات الالمانية ٣٨ في المئة . هذا ما تقوله جريدة دويتشي الجميني تسيتونغ . وكان التناقص اكثر وأظهر في عدد طالبي الدخول في هذه الجامعات . فبينما كان عدد هؤلاء الطالبين الجدد ١٤ الفاً ، سنة ١٩٣٣ ، واذا به ينزل في العام الحالي الى سبعة آلاف . والجامعات الصغيرة تشكو هذا التناقص اكثر من الكبيرة . مثال ذلك : ان جامعات كييل وماربورج وليبزك تحتوي الان على نصف العدد الذي كانت تعج به سنة ١٩٣٣ [1] »

(١) على سبيل المقارنة يحسن ان نقرأ الخبر التالي من الاهرام ايضاً :
في انباء موسكو ان مدارس السوفيات الابتدائية والثانوية فتحت ابوابها لجيش الاطفال الذين بدأوا الآن سنتهم الدراسية الجديدة . وتقول شركة (تاس) ان عدد التلامذة الصغار في المدارس السوفياتية بلغ الان ثلاثين مليوناً ، وهو اربعة اضعاف عددهم قبل الحرب العظمى . وقد عملت السلطات على اعداد كل ما تحتاج اليه السنة الدراسية الجديدة ، فبنت مدارس جديدة وأصلحت المدارس القديمة ، وجهزت المعامل بكامل ادواتها ، وأضافت الى المكتبات كتباً جديدة . وقد بدأ ما يزيد على خمسة ملايين من التلامذة القسم الاول من السنة الدراسية ، واعطي جميع الاطفال –

بكلمة مختصرة — ان الديموقراطية ، والحقوق والحريات التي تنبثق زاهرة منها ، هي الآن جميعها جثة هامدة تحت ظل الفاشستية « الديموقراطية قد ماتت ! ؟ » يهتف موسوليني مبتهجاً « الآن يجب ان نتلف جميع آثار الديموقراطية ، خصوصاً طريقة اخذ الاصوات وعقد القرارات على اساس الاكثرية كما لا يزال الامر في المجالس البلدية ، في التشكيلات التجارية وفي مختلف اللجان » يقول هتلر. « اننا نمثل المعسكر المعاكس لكل الدنيا التي تدين بمبادئ سنة ١٧٨٩ الخالدة » [1] يصيح موسوليني . « سنة ١٧٨٩ ستمحى من التاريخ » يقرر غوبلز . « اننا نبصق على الحرية » يصرخ الشباب النازي كما لقنتهم النازية التي تميت تربيتها كلما هو انساني أبي وجميل في النفس الآدمية وتزرع مكانه غريزة الانقياد ، كما في المواشي ، وغريزة الافتراس كما في ضواري الغابات .

الديموقراطيـة تلفظ انفاسهـا بضغط الفاشستيـة ، ولا تعيش إلا ديكتاتورية الرأسمال الضخم الاحتكاري — ديكتاتورية يكون عبدها واداة تنفيذها شخص طاغية دموي متغطرس ماهر في التمثيل يدعى (إيل دوتشي) او (درفيرر) الخ . يبرز على رأس الدولة وينحصر في ذاته كل شيء ، حتى الشرائع ، ويحرم المتهمون حق الدفاع عن انفسهم أمام بطشه واوتوقراطيته ، يبرز هـذا الشخص على رأس

ـهدايا لطيفة يوم دخول المدارس . والمدارس الجديدة تبنى على مساحات واسعة وقد بنت السلطات السوفياتية اكثر من ١١٥٠٠ مدرسة في خلال الثلاث سنوات الماضية . (نقلا عن الاهرام في ١٢ ايلول سنة ١٩٣٧) .

(١) أي : مبادئ « حقوق الانسان » ، التي اذيعت سنة ١٧٨٩ .

ديكتاتورية الرأسمال الضخم الاحتكاري ، ويصرخ على مسامع الشعب صراخ (ايل دوتشي) : « لا شيء وراء الدولة . كل شيء داخل الدولة ، لا شيء خارج الدولة ، لا شيء معارض للدولة » ! وصراخ (درفيرر) على نسق دجالي الاوتوقراطية القديمة الذين عرفناهم يدعون لأنفسهم التفويض من الله والمسؤولية أمامه وحده : « من هو مولود ليكون ديكتاتوراً لا يُدفع إلى امام ، بل هو يدفع ذاته ... من يشعر بنفسه مدعواً لحكم شعب فلا حق له أن يقول : عندما تحتاجونني ارسلوا إلي فأجيء ...! » مغزاه: (درفيرر) يريد حكم الشعب الالماني سواء أأراد الشعب ذلك أم أبى ، لأن (درفيرر) يشعر بنفسه مدعواً من الغيب لذلك الشأن ، ومخلوقاً ليكون ديكتاتوراً !

وحول الطاغية مطبلون ومزمرون له يمثلون معه أمام الشعب روايات صغيرة مضحكة للذي يفهمها ، ويحقنون الشعب بتهويلات وخرافات من عظمته المتناهية . نذكر الان رواية صغيرة منها مثالها موسوليني مع موظف فاشستي عزله ثم استرجعه ، وقال له : « طاعتك هي الطاعة ! انصرفت ، انا أمرتك ان تنصرف ! قبلت المسؤوليات التي عهدت بها اليك . اليوم كما في الامس . غداً كما في اليوم . هكذا تكون خدمة الفاشستية ! هكذا تكون خدمة الامة ! هذه هي الامثولة التي يجب أداؤها للشعب ! » ونذكر قليلا من التهويلات والخرافات التي يذيعها الفاشست الايطاليون ، والنازي الالمان عن موسوليني وهتلر : « موسوليني لا يخطئ » ، « هتلر وحيد ، هكذا هو الله ، هتلر مثل الله ! » ـ الى آخر هذه العبارات المقيتة التي تهين العقل البشري والاباء الانساني .

د ـ الشعب المخنوق ، كل شيء لحروب النهب الاستعماري

والشعب في حكم الفاشستية فقير تنهب أتعابه نهباً ، وجائع يطعم سفسطات طنانة[١] . انه لم يفقد حقوقه وحرياته الديموقراطية ، ويتمتع بشيء من الرخاء حتى يكون له بعض العزاء عما فقد ؛ بل هو لم يسلب حقوقه وحرياته الديموقراطية إلا لان الفاشستية تريد سلبه رخاءه . وينهض موسوليني مهنئاً إياه ، بكل وقاحة ، بأمر كالذي يلي :

« لحسن الحظ ان الشعب الايطالي لم يتعود أن يأكل مرات

(١) كالسفسطة الاتية من فم الدوتشي : « ان الفاشستية ترفض فكرة السعادة الاقتصادية التي تجعل الناس بهائم لا يطمعون في غير شيء واحد : الاكل والسمن ! » والظريف ان الدوتشي نفسه هو ناظم تلك القصيدة التي تكاد تؤله الخبز ـ وحق للخبز ان يكون موضوع التأليه في مثل النظام الفاشستي لشدة ندوره بين ايدي الشعب والقصيدة هي هذه : « إعشق الخبز . قلب البيت ، طيب المائدة ، سرور الموقد . إحترم الخبز . عرق الجبين ، كبرياء العمل ، قصيدة التضحية . سبّح الخبز . فخر الحقول ، عطر الارض ، وليمة الحياة . لا تبذر الخبز . ثروة الوطن ، أحلى عطايا الله ، اقدس مكافآت العمل الانساني » ومع هذا فتبلغ وقاحة الفاشست والنازي أن يزعموا اننا نحن جماعة مادة ، نريد جعل الخبز معبوداً للانسان . وكل ما نريده ، في الحقيقة ، هو ان نخلص الانسان من الركض الدائم كالكلب وراء رغيفه ، حتى يستطيع ان يجد النشاط والفراغ لاعمال سامية ترضي مطامحه الانسانية وتحرره من عبوديته ؛ لاننا إن كنا نعلم ان الانسان لا يحيا بلا خبز ، فنحن نعلم ايضاً انه لا يحيا بالخبز وحده !

جملة في النهار ، ولان له مستوىً منحطاً من المعيشة فهو أقل شعورا بالألم والعوز » .

وينهض غورنغ ، الجنرال النازي السفاك مبذر ما يسد عوز بضع عائلات على مشروبه من المورفين قائلا : « المدافع أهم من الزبدة » ؛ متشدقاً بمثل هذا الكلام الفارغ ذي الضجة[1] « : نحن نصنع التاريخ لا زبدة ! » (ما شاء الله) .

الفاشستية تفطس الشعب تفطيساً . تمنعه حرية القول والطباعة والنشر والتنظيم في سبيل الدفاع عن نفسه ، وتمنعه حتى أن يتمتم كلمات التأفف[2] . وهي تدهور اجوره ومداخيله ، وتطرحه في مخالب البطالة ، وتبهظه بالضرائب حتى يضطر موسوليني نفسه ان يصرح : « ان ضغط الضرائب قد بلغ الحد الاخير ! » . ومع ذلك فللفاشستية الوقاحة أن تدعي انها خلقت إخاء وسلاماً بين طبقات الشعب .

ذئاب المجتمع ، ذوو أظافر وأنياب الرأسمال الضخم الاحتكاري ،

---

(١) الحق ان اكثر كلام الفاشست ينطبق عليه قول المعري المأثور في شعر بن هاني الاندلسي : « اني لاسمع جعجعة ولا ارى طحناً ! »

(٢) منع الناس من تمتمة كلمات التأفف في ظل الحكم الفاشستي شي صحيح بمعناه الحرفي لا المجازي فقط . ان امرأة من (ماتز) Mainz في المانيا النازية سمعت تقول : « الحالة لن تصير احسن ! » فحكم عليها ان تجيء يوميا الى مكتب رئيس المجلس البلدي وتكرر : « كل يوم هو احسن من سابقه ، وسيصير احسن فاحسن » . (مقتبس عن كتاب : « الديكتاتورية النازية » ، لفردريك شومان ، صفحة ٤٢٥ .

قد افترسوا حملانه ، وتسمي الفاشستية ذلك اخاء وسلاماً ، وأي اخاء وسلام ؟! أليس الاصح :

أري خلل الرماد وميض نار ويوشك ان يكون لها ضرام

كما يقول الشاعر العربي ؟ أليس الأصح أن الفاشيستية باضطهادها للشعب ، ومحاباة طغاة المجتمع ، تجعل نشوب حرب اهلية فظيعة محتماً عندما تتاح الفرصة ؟ ان موسوليني يقول بكل صراحة : « إما أن نمتد وإما أن نتفجر » — اي إما ان نحارب حرب غزو ضد غيرنا : الحبشة أو اسبانيا مثلا ، واما ان تندلع نيران حرب أهلية بيننا . ويقول أيضاً : « نحن على نقطة بحيث اذا غفلت عين الدولة أربع وعشرين ساعة ، فان مهلتها تلك تكفي لايقاع خراب ! » وما لنا لا نقول ان الحرب الاهلية واقعة فعلا في ظل الفاشستية ، برغم تغطيتها للشعب . والا فما هذا الغض لكل منظمات البروليتاريا والشعب الحقيقية ، واستبدالها بمنظمات فاشستية ذات أسماء غرارة [1] . ليس للشعب كلمة فيها [2] و

(١) مثلا — ألفت الفاشستية منظمة للعمال سمتها : « مأمورية العمال » فخاف اصحاب الاعمال أن تكون هذه المنظمة آلة دفاعية للعمال ضدهم ، فصرح موسوليني لرئيس « اتحاد الصناعة » السنيور بني : « اني اؤكد للسنيور بني انني ما دمت في دست الحكم ، فان اسياد العمل لن يكون لهم شيء يخافونه من مأمورية العمال » — جوهو ، دستور الفاشست للعمل ، « مجلة الاحياء » ، عدد تشرين ١٩٣٢ .

(٢) هذا عامل يكتب الى احدى الجرائد مبيناً قيمة منظمات العمال الفاشستية : « أنا المشترك دائماً في نقابة صناعتي لم تتح لي الفرصة مرة واحدة أن احتك بمنظمتي ، ان اناقش في الاجتماعات ، ان اعبر عن رأيي بحرية » — جريدة Universale ، فلورنسا ، ٢٥ نيسان ١٩٣٣ .

لان اعداءه هم الذين يقبضون على مقاليد ادارتها ، ولسان حاله معهم كما قال المتنبي « فيك الخصام وانت الخصم والحكم » ؟ وما هذه الاعتقالات والتقتيلات التي تقوم بها الفاشستية بصورة مستمرة ؟ ان حادث (فوبرتال) في المانيا النازية ، سنة ١٩٣٥ ، : القاء القبض على ١١٠٠ عامل وعاملة متهمين بالعداء للدولة — كاف لنسف اكذوبة السلام والاخاء اللذين تدعي الفاشستية انها أوجدتها بين طبقات الشعب وكلمة الفيلسوف الروماني القديم سنيكا : « الحكومة الظالمة تبقى في حالة حرب مستديمة» وهي قاعدة يصعب ان يرى لها شاذ .

والآن ، فلنسمع ما قاله السنيور امندولا ، على فراش النزع الاخير ، وهو من معارضي الفاشستية الذين استعمل عليهم الفاشست حججهم - أي نبابيتهم وخناجرهم - كما استعملوها على ماتيوتي فمات من جراء اعتدائهم ؛ قال : « الفاشست الغوا البرلمان وهكذا فقدت حريتي في الكلام والغوا حرية الطباعة والنشر وهكذا لم أعد أستطيع أن اكتب . وقتلوني وهكذا فقدت حريتي في الحياة . كل هذا هو لاشيء عندي . البلاء الاكبر هو انهم سينتهون بقتل ايطاليا ! »

البلاء في كل فاشستية هو انها ستنتهي بقتل بلادها يوماً ، أي بتفقيرها التام وتجويعها ، زيادة على حرمانها حقوقها وحرياتها الديموقراطية .

ولماذا هذا التفقير والتجويع ؟ لماذا يكون من حسن الحظ ان الشعب الايطالي لم يتعود الاكل مرات جملة ؟ لماذا تكون المدافع أهم من الزبدة للشعب الالماني [١] ؟

(١) من غرائب حديث « المدافع أهم من الزبدة » في المانيا ما نشرته جريدة الفيغارو ، ٣٠ تشرين الثاني ١٩٣٦ ، وهي جريدة لا يمكن اتهامها

والجواب هو : ان الفاشستية تضطر الى تفقير الشعب وتجويعه لانها تجدم على حسابه مطامع الرأسماليين الضخام الاحتكاريين ، وتحاول على حسابه فتح الاسواق امام الراسماليين هؤلاء - اي انها تحاول استعماله اداة لقهر شعوب اخرى وإخضاعها لكابوس الاستعمار . وهذا ما دعاه غورنغ الـتاريخ حين قال : « نحن نصنع التاريخ لا زبدة ! » . الفاشستية لا تنحر حريات شعبها وحقوقه الديموقراطية فقط ، بل هي تحاول تجريده لنحر حريات شعوب غيره وحقوقها أيضاً . ولذلك يصرح غورنغ على رؤوس الاشهاد : « إن جميع امكانيات الـتوفير عند الشعب الالماني يجب ان توضع في خدمة التسلح ! » والواقع ان الفاشستية - وهي حركة هجوم طاغية من جانب الاقلية صاحبة الامتياز وسلطانة المجتمع ضد المحكومين - لا تبالي في سبيل مطامعها أتستعمل شعبها اداة تذبيح واستعباد لغيره ، أم تستعمل غيره اداة تذبيح واستعباد له . وامامنا الطبقة الاسبانية ، صاحبة الامتياز ، قد استعملت فيما مضى شعبها المرهق تحت وطأة حكمها ضد المراكشيين العرب ، فحكمتهم وأذاقتهم من العذاب . واليوم هي تستعمل المراكشيين ، عن طريق

يالميول المتطرفة . قالت : ذهبت سيدة افرنسية مؤخراً تزور صديقة قديمة لها في برلين . فقدموا لها في الساعة الخامسة فنجان شاي مع بعض خبز اسود ، وتأسفوا ان ليس لديهم زبدة يقدمونها . فلما عادت مواطنتنا (أي السيدة الافرنسية) الى بيتها بادرت الى ارسال كيلو من زبدة أسيني الى صديقتها في برلين . وكان البوليس في هذه الاثناء ساهراً على وظيفته . فلم يصادر الزبدة فقط ، بل حكم على المرسل اليها بسجن خمسة عشر يوماً « لانها تكرهت امام الاجانب من حالة البلاد الاقتصادية » .

الخداع والارغام ، وتستعين بالايطاليين والالمان ايضا ضد الشعب الاسباني نفسه الواثب وثبة الجبابرة للانعتاق وتكسير نيره ·

الفاشستية هي أكلب حركة استعمارية · هي الغاء صريح لحقوق القوميات في التحرر وتقرير مصيرها · تحقن شعبها بوهم تفوّق دمه على غيره وتحتقر قوميات العالم — الضعيفة منها على الخصوص — وتجعل النهش الاستعماري لهذه القوميات والفتك بها اولى مطامعها ، فلا ينخدع أحد من شباب الوطنية التحريرية اذا سمع بالفاشستية تنادي على نفسها بانها وطنية ·

« الاستعمار هو ناموس الحياة الابدي الثابت » يدعي موسوليني (بپولو ديتاليا) ، كانون الثاني ١٩٢٩ : « اوربا تحتاج الى مواد خام · يجب ان نجعل الاجناس السوداء تنتج ما نحتاج اليه · فلذلك تحتاج اوربا الى المستعمرات · الهنود والاجناس الاخرى العميقة اللون لم تبعث وفودا الى انكلترا تلتمس منها أن تعلمها المشي · ولكن الانكليز ذهبوا الى الهند وافريقيا ليعلموا الهنود والافريقيين كيف يمشون · ذهبوا الى هنالك لان الجنس الابيض (يعني الاوروبي) مكتوب له ان يكون حاكما بسبب ما لديه من نظرة البطولة الى الحياة · بأي حق تحصل الامم على مستعمرات ؟ بحق الاستيلاء عليها ! »
يقول هتلر · وفي الخطاب عينه يتطرق الى لوم الامم الاستعمارية وفي مقدمتها بريطانيا لمحاولتها تسيير مآربها الاستعبادية بمزاعم التمدين وما شاكل ، فيقول إذا اتبعت الامم الاوروبية هذه الخطة التساهلية الضعيفة الركب (يعني العصب) فان شعوب مستعمراتها يفقدون تهيبهم للجنس الابيض ويطرحونه عن ظهورهم · الاجناس السوداء والصفراء والسمراء (يعني كل من عدا الاوروبيين المستعمرين)

عندئذ يقولون بكل بساطة : اننا لم نعد بحاجة الى اوروبا . واذا دب دبيب هذا الوعي ، فان الاجناس الاعمق لوناً ، حينما تشتبك اوروبا في حرب عالمية ثانية ، ينتهزون الفرصة لطرد الرجل الابيض من اوطانهم » (٢٦ كانون الثاني ، ١٩٣٦) ويقول ايضاً : العرق النوردي له الحق ان يملك العالم . يجب ان نجعل هذا الحق النجمة التي نهتدي بها في سياستنا الخارجية » .

الفاشستية تحلم دائماً باجتياح الشعوب الضعيفة ، باجتياح كل من تستطيع اجتياحه على الاصح . فتعلم النشء الايطالي ان يغني مثلاً : « سنزحف على باريس ونرجع ظافرين حاملين معنا راس فرنسا المقطوع الدامي » فلا حياة اذن مع الفاشستية للسلم ، ولا امان للقوميات التي تشتهي ان تعيش وادعة متمتعة باستقلالها . الفاشستية هي نقيضة الوطنية التحريرية على خط مستقيم ، ولا يجوز لها ان تنتحل لنفسها اسم الوطنية في داخل بلادها ايضاً ، لان الوطنية الحقة إنما هي التي تعمل على رفاه الشعب المادي وانهاضه المعنوي، ولا تعركه بأرجلها كما تفعل الفاشستية .

٦ـ المرأة آلة لتوليد الرجال للحرب

بقيت لنا كلمة اخيرة نقولها على عجل وهي : ان الفاشستية فوق فظائعها الاولى حركة الغاء تام لحقوق المرأة — المرأة المضطهدة التي مرت عصور لم تكن تعتبر فيها من النوع الآدمي ، والتي بدأت في أواخر العهد الديموقراطي الرأسمالي تتسلق اولى درجات السلم من وهدة استعبادها ، وهي تنظر بنظرة أمل وابتهاج الى العصر الاشتراكي العتيد الذي يحررها نهائياً . وقد مدت اليها الفاشستية يدها

الباطشة فدهورتها من جديد الى حضيضها ، وجعلت لها ميزة واحدة فقط زعمت ان ليس اجل ولا أجمل منها وهي : « ميزة ارسال اولادها الى الحرب »! يقول غورنغ « المرأة مكانها في عقر الدار واجبها تسلية المحارب المجهد » .

****

لتعزيز ما ورد في هذا الفصل عن الفاشستية وللتوسع في فهمها نشير على القارئ بالرجوع الى المؤلفات الدقيقة القيمة التالية :

1. R. Palme Dutt-Fascism and Social Revolution Martin Lawrence, London.
2. Daniel Guerin - Fascisme et Grand Capital Galliw-ard. Paris.
3. Gaetano Salvemini - Under the Axe of Fascism Gollancz. London
4. George Seldes - Sawdust Caesar. Barker, London
5. Frederik Schuman - Hitler and the Nazi Dictaitorship. Hale, london.
6. Robert A. Brady - the Spirit and Structure of German Fascism. Gollancz London.



خاتمة - نحن وحقوق الانسان

الديموقراطية شعارنا !

١ — الموقف العالمي في خطوط عريضة

ضروري أن نجعل أمامنا قبل كل شيء ، حالة العالم الان فيما يتعلق بحقوق الانسان ، وان استدعى ذلك منا بعض التكرير ، كي نستطيع على ضوء تقدير الموقف العالمي أن نكون على بينة من قضيتنا التي نخطئ إذا حسبناها منعزلة ، ولم نحسبها مشتبكة بمجرى الامور في العالم سواء أشئنا ذلك أم أبينا ، إذ العالم الان ، بفعل نضوج الثورة الصناعية هذا النضج الهائل قد قرب من بعضه كثيراً واصبح مرتبطاً كله بصلات قوية حتى لتكاد تتأثر كل زاوية منه بما يحدث في الزاوية الاخرى تأثراً مباشراً أو غير مباشر .

الموقف العالمي الان هو : موقف حياة ونمو لحقوق الانسان أو موت واضمحلال . هو موقف صراع بين الديموقراطية الخالصة والاشتراكية من جانب ، والفاشستية وديكتاتورية أصحاب الملايين من جانب آخر . نحن نعيش في غمار ثورة تحرير الانسانية تحريراً كاملا ، اجتماعياً وقومياً من جانب ، ونعيش في قلب الردة الرجعية لاستعباد الانسانية استعباداً كاملا قومياً واجتماعياً من جانب آخر . والجانبان ، ونحن نكتب

هذه السطور، يتبادلان الرصاص في اسبانيا والصين ، ونأمل أن تنجح قوى الانقاذ في درء الفواجع التي تهدد العالم .

فيجب أن نعين موقفنا الى أي جانب هو . ولكن على أساس فهم الحالة العالمية هذا الفهم العام لا يمكننا أن نعين موقفنا ونرى بصفاء خطة العمل أمامنا ما لم نفهم حالتنا الداخلية أدق فهم بكل صغيرة وكبيرة فيها .

نحن ابناء لبنان وسوريا وفلسطين والعراق ومصر ، وكل قطر من هذه الاقطار التي تنطق العربية الجميلة ويجمعها اسم الشرق العربي ، نقع في صف خاص بين الامم توسم بالضعيفة وتشمل سلسلة قوميات على درجات مختلفة من القوة والتطور كالصينيين والهنود والاحباش الخ ولكنها جميعاً : اما مهضومة الحقوق هضما كاملا ، أو مقيدة الارادة بنفوذ أجنبي عامله السياسة أو الاقتصاد أو المركز الجغرافي . وان امم الارض اليوم (عدا الاتحاد السوفياتي) لتقع في صفين عظيمين يمكن وضع الحد الفاصل بينهما بسهولة : الامم ذات الدول القوية المدججة بالاسلحة من ام رأسها الى أخمص القدم — الامم الاستعمارية — والامم الضعيفة التي نحن منها . وموقف الاولى من الثانية موقف استيلاء واستعمار واستثمار بشكل من الاشكال ، وموقف الثانية من الاولى موقف خضوع ونقمة . ولقد أشرنا سابقاً كيف ان البورجوازية تحتاج الى الاستعمار ، إلى اخضاع الامم الضعيفة ، سعياً وراء المواد الخام والوقود لصناعاتها ، والاسواق لتصريف بضائعها ، والمشاريع لتشغيل رساميلها الفائضة .

٢ – البورجوازية تعيث فسادا فى مستعمراتها ولا تعرف فيها الديموقراطية

والبورجوازية في الوقت الذي تهدم فيه الاقطاعية والاوتوقراطية وسيادة رؤساء الدين ، وتتسامح بالحقوق والحريات الديموقراطية في داخل وطنها ، وتقضي على أساليب الانتاج العتيقة بأساليب صناعية حديثة — في الوقت الذي تفعل فيه البورجوازية جميع ذلك في داخل وطنها نراها في الامم الضعيفة التي تخضعها لسلطانها - أي في مستعمراتها - تتبنى الاقطاعية وشكل الحكم الاوتوقراطي وسيادة رؤساء الدين ، وتحارب الحقوق والحريات الديموقراطية وتحرص على استبقاء أساليب الانتاج العتيقة ، وتستخدم كل عصبية من العصبيات السامة - طائفية كانت او عائلية او شخصية وغيرها - التي تمزق شمل القومية ، وتضعف مقاومة الشعب ، وتلعب على مخاوف الاقليات وشكوكها ؛ كل ذلك لتبقي المستعمرات على مستوى متأخر سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً ، فترسخ دعائم سلطتها وتمكن كلاليب استعمارها .

البورجوازية الانكليزية تنسى كل شيء عن هذه الديموقراطية التي تتمجد بها في داخل انكلترا عندما تطأ أقدامها أرض مصر والهند وفلسطين مثلا . واذا هب المصريون والهنود وعرب فلسطين تحت علم الديموقراطية مستعملين حق حرية التعبير مثلا ، مصرحين بشعورهم الطبيعي نحو غاصبي حريتهم فلا نصيبهم إلا السجون والمنافي والمشانق .

والبورجوازية الفرنسية الضخمة ، التي قلمت من أظافرها الجبهة الشعبية الان ، تقبر مبادئ الثورة الفرنسية العظيمة حينما تجد نفسها

في سوريا ولبنان ، فتسلط قنابلها على دمشق ، وتسن قوانين منع التجمهر وقيود الصحافة مما لا يزال ارثاً بغيضاً لنا من العهد البائد .

زبدة القول اننا الان نفيق على أنفسنا وقد عاثت بنا البورجوازيات الاستعمارية . فنجد اننا ضحايا مساوئ ومظالم تعرقل مطامحنا التقدمية . نجد أنفسنا نتأذى كثيراً من بقايا إقطاعية منحلة كان ينبغي أن تكون لوشيت قديماً ، ومن شهوة الى الحكم الاوتوقراطي تتحرك بها صدور من نرفعهم الى كراسي الحكم ، ومن سيادة يتمتع بها رؤساء الدين ولا يستعملونها استعمالا نزيهاً ، ومن انعدام الحقوق والحريات الديموقراطية ، أو من وجودها كسيحة ، ومن عتق اساليب الانتاج الزراعي والصناعي ، ومن العصبيات السامة بشتى صورها ، ومن مخاوف الاقليات وشكوكها التي لعبت عليها البورجوازيات الاستعمارية لعباً لئيماً إجرامياً .

فما السبيل لازالة هذه المساوئ والمظالم التي تعرقل مطامحنا التقدمية ونتأذى منها بشدة؟

٣ — علاجنا الديموقراطية الصحيحة

لنا سبيل واحد هو الديموقراطية ، ولو بشكلها البورجوازي زمان كانت البورجوازية ثورية تقدمية وقبل أن اصبحت رجعية كما هي اليوم في عهدها الراسمالي الاحتكاري تريد افتراس الديموقراطية ، واعلان الديكتاتورية الفاشستية .

في ظل الديموقراطية تعيش للمواطنين حقوق وحريات هي حقوق وحريات الانسان التي ما زلنا نتكلم عنها ، والتي هي حيوية جداً لنمونا ونجاحنا في كل ناحية من نواحي حياتنا . لان الحريات هي بمثابة

منافذ بروز لقوى نشاطنا المكبوحة التي كبحها الاستعمار المستبد بسد منافذ بروزها عليها آناً بالسلاح وآناً بغيره ·

في ظل الديموقراطية وحقوق المواطنين وحرياتهم تنكسر شوكة الاضطهاد والتشريد ، وترتفع الاصوات بشرح ما هو جار في البلاد وبطلب ما هو ضروري من الاصلاح آمنة مطمئنة · فيصير في قدرة كل عضو من المجتمع أن يكون على وعي مما يدور حوله ، ومما يعوزه ويعوز امته ·

في ظل الديموقراطية وحقوق المواطنين وحرياتهم نستطيع أن نشيد معقل اقتصادياتنا الذي خربته البورجوازيات الهاجمة علينا بفيض بضائعها ورساميلها · نستطيع ان نفسح المجال لذوي الاموال [1] والهمم ان يبعثوا نشاطاً صناعياً زراعياً تجارياً ، مع مساهمة الحكومة في بعث هذا النشاط وفي حماية اقتصادياتنا من أذى المزاحمات الاجنبية الشديدة ·

في ظل الديموقراطية وحقوق المواطنين وحرياتهم المطلقة على اختلاف هيئاتهم نستطيع ان ننتظم في الف شكل من أشكال التنظيم : العمال والفلاحون في نقاباتهم ؛ الشباب في فرقهم الكشفية والرياضية وحفلاتهم ورحلاتهم وتمثيل الروايات للشعب ؛ المثقفون في أنديتهم ومشاريع محو الامية وإصدار الكراريس والمجلات وفتح غرف

(١) قد يعجب القارئ من أننا ندعو الآن الى فسح المجال لذوي الاموال منا كي يقوموا بالمشاريع مع ما عرفه خلال الكتاب من معارضة شديدة للرأسمالية ؛ ولا مجال للعجب · نحن اذا عارضنا الرأسمالية فانما نعارض الرأسمالية الاجنبية الاستعمارية القوية ، التي تتمتع عندنا بالامتيازات والاحتكارات وتستبد بنا وتنهبنا · ولسنا نعارض رأسماليتنا المستقلة الناشئة الضعيفة ، لاننا في مرحلة تستوجب تعزيز رأسماليتنا وحمايتها اذ بذلك ينهض وطننا ويكتسب مناعة تقيه ضد هجوم الاستعمار ، وتأسيس الدعامات المادية لتحرره الناجز في المستقبل ·

القراءة الخ ، الخ - بدون أي اعتبار للطائفية والعائلية وما اشبه ، فتضمحل منا بفضل هذه الاعمال العصبيات السامة ومخاوف الاقليات وشكوكها ، وتنهار دعائم الجدران التي تفصلنا عن بعضنا ، وتموت ذكرى الجهالات والحماقات الماضية . يموت هذا الداء الوبيل الذي ينهكنا -- داء انعزالنا عن بعضنا وقلة المخالطة بين مختلف أوساطنا . يموت بقوة تعاوننا على القيام بالامور المفيدة . لقد كنا حتى الآن نخاطب بعضنا بعضاً عن المنابر ، فمنذ الان يلزمنا نحن الشعب : العمال والفلاحين والشباب ، أن نشترك اشتراكاً فعلياً في أعمال يومية معينة على أساس الديموقراطية : اي المناقشة الحرة وإقناع بعضنا ، وتعليم أنفسنا بانفسنا ، وتقرير المسائل وفقاً لارادة الاكثرية . فاذا عشنا حياة الديموقراطية في حلقاتنا المحدودة ، وتملكنا زمام ادارة مشاريعنا الخاصة الصغيرة باسلوب ديموقراطي ، تكاثر عندئذ عدد الديموقراطيين المدربين وأصبحنا أقدر على إسناد الوظائف العامة إلى من هم ديموقراطيون بالفعل ، بادئين بمعلم ومختار الحي أو القرية ، فأعضاء المجالس البلدية ، فالنواب ، فارضين رغبتنا على جميع الجهاز الحكومي .

يجب أن يكون لنا الآن شعار واحد هو الديموقراطية سواء أ كنا من الذين يؤمنون بالوحدة السورية أو بالانفصال ، بالوحدة العربية أو باحتفاظ كل قطر عربي بشكل من كيان خاص . ان خصوماتنا حول هذه الامور الجديرة بان تنحط الى خصومات حول الجغرافيا ، فضلا عن ان الديموقراطية كفيلة بفض مشاكلنا . ان نشأة على قواعد ديموقراطية صحيحة ينشأها لبنان وسوريا ، وتؤمن لكل عضو من المجتمع السوري واللبناني حقوقاً وحريات ديموقراطية مطلقة متساوية ، وتوجد مستوى ثقافياً متناسباً متلائماً تكون هي

عاملا حاسماً في محو عدم الثقة من النفوس وبذر بذور الالفة ، وتكون بمثابة حجر الاساس لبناء مشترك يبنيه البلدان بتعاون حر واخاء .

وكذلك ان تربية على قواعد ديموقراطية صحيحة تتربأها الاقطار العربية كلها ، وتضمن لكل فرد منها حقوقاً وحريات ديموقراطية مطلقة متساوية ، وتقارب بين درجات تطورها تكون هي امتن رابطة تربط هذه الاقطار وتسهل عليها تفاهماً واتحاداً ديموقراطياً في المستقبل يتخذ أشد الاشكال موافقة للظروف التي يتحقق فيها .

٤ — واولئك المخدوعون بالديكتاتورية ؟!

بقي علينا اولئك الشباب الذين غرهم صنم الديكتاتورية فأرادوا عبادته واحراق البخور له . ان هؤلاء ليقعون في فئتين : فئة المغشوشين ، وفئة مأجوري الديكتاتوريات الاستعمارية الاجنبية ـ فئة مأجوري الفاشستية الايطالية والنازية الالمانية الذين يريدون تسليمنا الى أوحش ضرب من ضروب الاستعمار .

فاما الفئة الاولى فهم مغشوشون . لان كلمة ديكتاتورية قد خلطت عليهم الامور خلطاً . يشاهد هؤلاء ما نتأذى منه من مساوئ ومظالم فتاكة ، يشاهدون هذه الاحزاب الكثيرة القائمة على دعائم طائفية وعائلية وطمع شخصي تتطاحن على مصالحها الانانية ، يشاهدون صورة من الديموقراطية ويشاهدون قليلا من الديموقراطية نفسها ، قليلا من الحكم طبقاً لما تريده اكثرية الشعب . فيقولون: حبذا لو تنهض قوة غلابة تضرب بيد من حديد على هذه الاحزاب التي تقسمنا حول طوائف وعائلات واشخاص ، وتتلاعب بنا وتنبذ مصالحنا ظهرياً ! ويسمون هذه القوة الغلابة التي تضرب بيد من حديد الديكتاتورية . وغايتهم الحقيقية

من وراء قيامها هو القضاء على العناصر المضرة بمصالح الشعب ، وتوحيد صفوف الشعب وفسح الحرية لتحقيق ارادة الاكثرية . هذه هي حقيقة الغاية في نفوسهم عندما يطلبون الديكتاتورية . انهم يطلبون ديكتاتورية الشعب ضد اعداء مصالحهم ، ويطلبون انتصار ارادة الشعب على ارادة اقلية تنصّب انانيتها فوق الجميع . فبكلمة اخرى : هم يريدون الديموقراطية عندما ينطقون بلفظة الديكتاتورية ، لان الديموقراطية الحقة لا تعني شيئاً إذا لم تعنِ ديكتاتورية الشعب - أي نفوذ ارادة اكثريته وعلو مصلحته فوق كل مصلحة .

فاذا كنا نطمح الى الديموقراطية ونحن نقول الديكتاتورية ، فلماذا لا نقول الديموقراطية رأساً ؟ . ان قولنا الديكتاتورية فقط — لا ديكتاتورية الشعب — جدير ان يفسره ذوو الاغراض باننا نريد ديكتاتورية فرد أو أفراد ، لا ديكتاتورية جماعات الشعب ، والفرق شاسع جداً .

في ديكتاتورية الفرد أو الافراد تموت حرية البحث والاطلاع وتنقطع الصلات بين الشعب وبين حقيقة ما يجري في حلقة حكامه الضيقة المسيجة .

في ديكتاتورية الفرد أو الافراد يصبح النقد جريمة ، لأن الديكتاتور يصير أشبه بإله ، ومن حوله أشبه بأفراخ آلهة .

في ديكتاتورية الفرد أو الافراد يتسع المجال لشتى المفاسد من رشوة وظلم في جهاز الحكم حتى تبلغ أقصى حدها ، لان كل شكل من الرقابة الشعبية على حلقة الحكام الضيقة قد ازيل ، فيتمكن الحكام من ارتكاب مفاسدهم ، مع الحرص على تستير بعضهم ، لانهم شركاء في الجريمة ضد الشعب (وليس معنى انكشاف فضائح الرشوة في

اميركا وفرنسا مثلا بانها غير حاصلة في المانيا وايطاليا . ولكن سبيل ظهورها أمام الشعب في المانيا وايطاليا مسدود بعناية خاصة) .

في ديكتاتورية الفرد أو الافراد لا بد للشعب من أن يتدهور في هوة الفقر ويقع في حضن الجهل ، لان حكامه يسلبونه ثروته العامة لزيادة ثروة أقلية ، ولتدبير المجازر والحروب ، ويخشون منه ان يستنير وينقلب عليهم .

ففي ديكتاتورية الفرد أو الافراد تظل البلاد عرضة لخطر الفتن والمذابح خصوصاً عندما يموت الديكتاتور المتأله ، وينشب الخصام حول خلفه ، ويجد الاستياء المكبوت في نفوس الناس ، والانقسام الذي خلقه الديكتاتور في صفوف الشعب إبان حياته حتى استطاع الحكم ، مجالا للانفجار .

فهل نريد نحن شيئاً من ذلك ؟ هل نريد ديكتاتورية فاشستية على نمط ايطاليا والمانيا ، ديكتاتورية فرد وأفراد حوله في حلقة الحكم يستندون الى طبقة قابضة على خناق الامة برساميلها الاحتكارية ؟ كلا !

هذا فضلا عن ان الديكتاتورية الفاشستية بمعناها في المجتمع الغربي الصناعي في ايطاليا والمانيا — اي ديكتاتورية الرأسمال الضخم الاحتكاري — لا يمكن ان تتحقق عندنا . لان الصناعة والرأسمال ضعيفان عندنا جداً . والرسمال الضخم الاحتكاري لا وجود له البتة — إلا بشكل شركات احتكارية اجنبية هي ليست منا بل هي بلايا الاستعمار التي رمانا بها ، وأشواكه التي غرزها في قلبنا والتي نريد قلعها .

فمن الواضح اذن ان ديكتاتورية فاشستية تبنى على قاعدة صناعية رأسمالية منا أنفسنا لا يمكن ان تتحقق . كل ديكتاتورية فاشستية عندنا ، في أحوالنا الحاضرة ، يتحتم أن تكون عبدة لاستعمار

اجنبي ، لديكتاتورية فاشستية اجنبية ، لا وظيفة لها إلا ان تسهر ، ككلب الحراسة ، على حماية قيود عبوديتنا من ان نحطمها بأيدينا ، وعلى حماية تلك المساوىء والمظالم فينا التي ذكرناها سابقاً وعرفنا كم هي حجر عثرة في طريق هدفنا المنشود ·

د — تداركوا الخائنين !

وهنا نقف وجهاً لوجه امام اولئك الذين يدعون الى ديكتاتورية فردية عندنا على اساليب فاشستية ، وهم ليسوا من فئة المغشوشين بل ممن يعرفون جيداً ماذا يبيّتون · صحيح ان هؤلاء قليلون جداً : صحافيون كاسدون ومغرورون أنانيون وما أشبه ، ولكنهم على قلتهم ورخصهم خطرون يجب ان تفتح عيون الامة عليهم فتحاً كبيراً ، فانهم سلاح سام في أيدي الفاشستية الاستعمارية التي تبث الدعاية لاستعمارها هنا وفي كل مكان ·

هل نحن في شك من ان الفاشستية تبث الدعاية لاستعمارها ؟ لقد مر زمان قال فيه موسوليني : « الفاشستية هي نتاج ايطالي خاص » ، وقرر انها لا يمكن ان تعيش او تصدر الى خارج ايطاليا · ولكنه ما لبث أن قال : « ان الفاشستية هي جيش هاجم ··· اننا نحارب عالماً منحطاً » وبالامس فقط ، اجتاح ذلك الجيش الهاجم بلاد الحبشة اجتياحاً دموياً · على ان السنيور دينو غراندي كان أصرح من موسوليني في هذا الباب ، حيث قال : « القنصل هو العنصر الضروري الاساسي في توسع ايطاليا ، في الميدان السياسي والاقتصادي والثقافي · القنصل هو الرائد في المدنية الجديدة التي أنشأتها الفاشستية » · بكلمة اخرى خالية من الطلاء واللف والدوران : القنصل عند الفاشستية هو

آلة الدعاية والتمهيد لفتوحها الاستعمارية . والذي يقدره الصحافي الاميركي « جورج سلدس » ان ايطاليا تنفق ٣٠٠ مليون لير على دعايتها الاستعمارية ، ومن يلق نظرة على خريطة الامبراطورية الرومانية التي رسمتها يد الفاشستية ، وعلقت منها الوف النسخ على الجدران أمام أعين الاطفال لتهيج فيهم جنون الحرب والغزو ، يجد الاقطار العربية جميعها مدرجة في الخريطة وموضوعة على لائحة مطامع الفاشستية .

والنازية الالمانية فرس رهان مع الفاشستية الايطالية في هذا المضمار . وجريدة (فولكيشر بيوباختر) التي يحررها الفيلسوف الزائف روزنبرغ ، بوق الدعاية النازية الاستعمارية تعتز علناً في أحد اعدادها (٢٧ ايلول ١٩٣٤) بانتشار النازية في البلدان العربية ، وبتأليف فرقة قمصان خضراء فاشستية الخ ...

أجل ان الفاشستية لترمقنا بعيون يقدح منها شرر شهوة الافتراس . هي تطمع فينا ، في بسط استعمارها الذي هو أوحش اشكال الاستعمار علينا . ولكننا نبغض الاستعمار ، ونريد الاستقلال والسيطرة على مقدراتنا ومرافقنا بأنفسنا . ونحن جنود الديموقراطية وحقوق وحريات الانسان في اوطاننا ، كما نحن جنودها في خارج اوطاننا ايضاً — في الدنيا باسرها لان مصيرنا لن ينعزل عن مصير غيرنا . وما أصدق العربي الذي قال : « انا ادافع عن دمشق في خنادق مدريد ! » وإباؤنا واعتزازنا القومي لا يعنيان مطلقاً اننا لسنا مستعدين للتعاون على مشاكلنا ومشاكل العالم اجمع مع الامم الديموقراطية الحقة — اي : الامم التي تعترف لنا بحريتنا وتعاملنا على أساس الانصاف ، ولا يجول في ذهنها اننا من طينة أحقر من طينتها خلقنا لكي نطأطئ لها الرؤوس !

تذييل للمؤلف

هذا الكتاب مقصود للقارئ العادي ، لمن نال قسطاً ما من الثقافة . وليس هو مقصوداً للقاريء المتقصي . ولذلك فيظهر في هذا الكتاب الحرص على شيء من البساطة والسهولة ، ولو ان في ذلك تضحية للتعمق والتوسع . واذا استطاع هذا الكتاب ان يكون للقارئ نقطة ابتداء في التعمق والتوسع وحافزاً الى تقصي القضايا المعقدة التي يعالجها فان المؤلف ليعد نفسه موفقاً الى ما يبتغيه .

ماذا يعالج هذا الكتاب ؟

بكلمة عامة — انه يعالج تطور التاريخ . ويميل المؤلف الى ان يجمل تطور التاريخ في عدد من الانقلابات والثورات داخلة في بعضها متشابكة طبعاً ، جرت في حلقات ومرت في مراحل وتحققت على درجات ، وكان من اشكالها السلمي والعنفي والمشعور به وغير المشعور به ، وهكذا . ولكن تيسيراً للبحث يرى المؤلف ان يجعل عدد هذه الانقلابات او الثورات اربعاً :

اولا — النزاع بين تفسيرين لصلة الانسان بالكون ووجهتين من النظر مختلفتين كل منهما تريد الافراد بالسيطرة على عقل الانسان وعواطفه وسلوكه — نزاع العلم والدين كما تمثله هيئة رسمية (كنيسة او مشيخة الخ) . وتحت هذا النزاع ينطوي مثلا حركة الاصلاح ضد البابوية واضطهاد الكنيسة للعلماء ومن كانت تدمغهم بدمغة الهراطقة ،

وتسلط عليهم دواوين تفتيشها . ولا يمكن ان يقال ان هذا نزاع قد انتهى حتى اليوم ، وان كان القرن الثامن عشر خصوصاً ، وهو ما نسميه بعصر العقل والاستنارة والفكر الحر ، قد رجح الكفة في مصلحة العلم ترجيحاً كبيراً .

ثانياً — الانتقال الاقتصادي من القرون الوسطى ونظمها وطرق انتاجها الى العصور الحديثة . ويدخل في هذا الانتقال تحطم الاقطاعية واكتشافات وفتوحات العلم وقيام الثورة الصناعية وانقضاء عزلة العالم عن بعضه ونشوء الراسمالية وارتكاز المجتمع الحديث على قواعدها وتطويقها لمعظم الدنيا بسياجها وتغلغلها الاستعماري .

ثالثاً — الصراع السياسي حول من يستلم ازمة الحكم — الملك وجوقة حوله من اشراف واحبار ام جماهير الشعب (وعلى رأسها طبعاً الطبقة الوسطى المتمولة التي عززت سيادتها الثورة الصناعية) وهذا هو الصراع المشهور بين الاوتوقراطية والديموقراطية ، وألمع حوادثه وأبعدها صدى وتأثيراً الثورة الافرنسية الكبرى سنة ١٧٨٩ م .

رابعاً — تطور المجتمع المرتكز على قواعد الراسمالية الى حد عظمت فيه أزماته وتناقضاته — خصوصاً التناقض بين البورجوازية الاحتكارية والبروليتاريا وبين دول الاستعمار والمستعمرات — حتى اصبح لا بد من تبديل قواعد المجتمع الحاضر وبناء مجتمع جديد على اسس جديدة . هذا التيار تاقي معه الثورة الروسية سنة ١٩١٧ وانشاء المجتمع الاشتراكي هنالك ، وتأتي معه ثورات المستعمرات وحماية الراسمالية لنفسها بارهابات الحكم الفاشستي وما نشاهده من اعتداءاتها على الديموقراطية وقيامها بحروب النهب والاجتياح .

ذلك ما يحاول ان يعرضه هذا الكتاب في صفحاته جاريا جريا

مستعجلا جداً ، متمهلا بعض التمهل حيث يعتقد المؤلف ان ذلك ضروري . وفي آخر هذا العرض المقتضب لتطور التاريخ فصل هو درسنا الذي ينبغي ان نستخلصه نحن لانفسنا من معرفة تطور التاريخ (واي نفع من المعرفة اذا لم نستخلص لنا منها درساً ؟) وهو ايضاً دلالة على موقفنا الذي ينبغي ان نقفه في غمار هذا العالم المضطرب بما فيه من قوى متصادمة .

هل احسنت ؟ هل أسأت ؟ ذلك لك ايها القاريء العزيز .

دمشق : كانون الثاني ١٩٣٨ رئيف خوري



محتويات الكتاب

يطلب هذا الكتاب من:

ادارة مجلة الطليعة : دمشق — ص.ب ٣٤١

ومن المكاتب العربية

ثمنه في سوريا ولبنان ٥٠ قرشاً

وفي العراق ١٠٠ فلس وفي مصر وفلسطين ١٠٠ مل



تصويبات

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩	٣ (من العنوان)	سبع	سبعة
١٠	١٣	سبع	سبعة
١٧	١٣	ضمنوه	خمنوه
٢١	١	الذي	(تحذف)
٣٣	٦	الرواقيين	الستويك (Stoics)
٣٥	١٥	الحذمة	الحربة
٣٦	١	التتويج	التوبيخ
٣٩	٤	ليكزقتون	ليكزنغتون
٤٥	الحاشية	Etat	E ats
٤٧	٣	في	(تحذف)
٤٨	١٩	يلقحون	يلقمون
٤٩	١	توجهتها	توجتها
٥٦	١٢	بقصد	بقصر
٥٦	١٤	بابوف	بوناف
٥٨	١٢	اري الان	الان أرى
٦٥	١١	الفوضى	الغوص
٧٢	١٠	على	من
٩٣	١٠	نبلع	نبلغ
٩٤	٥	باودريختال	بأدريختال

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٠٥	٥	هرشتيلد	هرشفيلد
«	٣(من الحاشية)	المدرسيين	المدرسين
«	١٥(من الحاشية)	بالشجاعة	بشجاعة
١٠٦	١٠	هرشفيلر	هرشفيلد
«	١٢	«	«
١٠٧	١	توماس	توماس مان
١١٥	٨	و	(تحذف)
١١٧	١٩	تسيير	تستير
١١٩	٩	Galliw-ard	Gallimard
١٢٩	١٩	ديتو	ديتو
١٣٣	٢	لتتطور	انطور




الطليعة
رسالة التحرير الفكري